الفصل الثالث

الغرب فى مواجهة الإسلام

- ميراث الخوف والعداء.
- غواية الاستشراق.
- الدعوة إلى التفاهم والحوار.

«لقد بدأت العلاقة بين الإسلام والغرب بتلك الرسالة التى بعث بها محمد رسول الإسلام إلى هرقل ملك الروم. . هذه العلاقة التى لم تنقطع ولم تتوطد على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان»!!

(المفكر الألمانى المسلم د. مراد هوفمان)

«المرحلة الراهنة» «مرحلة صعبة» لكنها مفصلية فى إعادة صياغة العلاقات الدولية بين الغرب والإسلام. . وبين الأديان الإبراهيمية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. . فالخيارات باتت واضحة ـ فإما تَنَاحُر بين الأديان «وصراع بين الحضارات . . وحرب بين الأمم. . أو حوار بين الثقافات وسلام بين الأديان. . سعيًا إلى سلام بين الشعوب».

(عالم اللاهوت السويسرى د. هانز كونج)

تقديم

تعود جذور العلاقة بين الإسلام والغرب إلى تلك الرسالة التى بعث بها النبى محمد ﷺ إلى هرَقْل إمبراطور الروم يدعوه فيها إلى الدخول فى الإسلام. وظلت هذه العلاقة لم تنقطع على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان، لكنها لم تتوطد أيضًا على الرغم من بعض الإيجابيات فى العلاقات الاقتصادية والثقافية، إلا أن الغرب المسيحى والشرق الإسلامى كانا فى حالة مواجهة يغْلُب عليها العداء والصدام أكثر منها تكامل وانسجام، فكلّ منهما يتوجس من الآخر ولا يفهمه فى ظل وجود ذاكرة خازنة واعية... فعلى ضوء الفتوحات الإسلامية الناجحة من حيث سرعتها والمساحات الهائلة التى وصلت إليها، تشبث الغرب بدعوى انتشار الإسلام بالسيف. فإذا كان من المؤكد من الوجهة العسكرية أنه لم تتمكن أية قوات أن تَصْمُد أمام حماسة المسلمين، فإنه من المؤكد أيضًا أنه لم يكن فى إمكان تلك القوات قليلة العدد أن تُسيطر على تلك المساحات الشاسعة ما لم يَرْضَ بها الأهالى وينضمون بإرادتهم تحت لوائها. وهناك بالقطع تفسير صحيح لا يوافق عليه الغرب «وهو أن كثيراً من المسيحيين فى الشرق والغرب فَضَّلوا الإسلام كديانة على عقيدة التثليث أو الطبيعة الإلهية للمسيح»[١٠٤]. ومن المؤكد أيضًا أنه إذا كانت الفتوحات الإسلامية قد «صنعت التاريخ» فإن الحضارة الإسلامية قد نهضت بدورها كذلك فى العلوم والآداب والفنون نهضة شاملة، واكتسحت فى طريقها «حضارة الغرب» اعتباراً من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر من الميلاد.

... ويُشير العديد من المؤرخين الغربيين إلى أن العالم المسيحى كان يَخُصُ العالم الإسلامى باهتمام يفوق ما كان يتلقاه منه، والظاهر أن عوامل البغضاء والخوف والإعجاب وجاذبية المجهول كانت تعيش كلها مجتمعة فى عالم المسيحية طوال العصور الوسطى، وكانت غرابة العالم الإسلامى ملموسة بوضوح لدى النصرانية

الغربية. فكان الاهتمام الشعبى يتركز حول شخصية النبى محمد ﷺ والنظر إلى الإسلام باعتباره فرقة مسيحية مارقة. وكان كل مزيد من العلم والفهم لرسول الإسلام يقف فى سبيله تلك الكراهية المتزايدة التى كانت الحروب المتواصلة تُؤَجِّج منها، على أن البغضاء والخوف وسوء الفهم من جانب الروم البيزنطيين لم يحل بينهم وبين احترام خصمهم العظيم المتمثل فى الإسلام بل وتقديره فى بعض الأحيان؛ لأن قيام الدولة الإسلامية كان بمثابة الحافز الجديد لحضارة الرومان، ومن العجيب أن يلاحظ المراقب لهذه العلاقة كيف أن هيبة العرب المسلمين بلغت ذروتها فى الحاضرة البيزنطية «القسطنطينية» فى نفس الوقت الذى بلغت فيه العلوم والأفكار أقصى رواج لها فى «بغداد» حاضرة الخلافة الإسلامية.. آنذاك.

... وإذا كانت الحروب الصليبية تُمَثِّل أحد قنوات الاحتكاك بين الحضارتين الغربية والإسلامية، فعلينا ألا ننسى أن الاحتكاك الذى نتج عن هذه الحروب إنما قام على أساس الاحتكاك المباشر من خلال التواجد الفعلى للصليبيين على الأرض العربية الإسلامية فى مناطق المشرق التى تمثل مواقع الانتاج الحقيقى للفكر الإسلامى، ثم قيامهم بالعودة بذلك الجزء من التراث الإسلامى إلى الأراضى الأوروبية. فالتبادل الثقافى الفكرى والعلمى بين المسلمين والغزاة على مدى فترات الحروب الصليبية وبصفة خاصة خلال فترة الاحتكاك بين «فريدريك الثانى» وبين «السلطان الكامل» تمثل صفحة غزيرة لهذا التبادل، فقصة التعامل بين فريدريك الثانى والعالم الإسلامى أدت إلى وصفه بأنه صاحب «السياسة الإسلامية»[١٠٥] التى جلبت عليه غضب البابا فتم طرده من الكنيسة، وتركت آثاراً لا تُمْحَى فى تاريخ الحضارة الأوروبية؛ لأن فريدريك الذى كان يحكم صقلية أسَّس نظامه السياسى على التكامل مع العقليات الإسلامية والقدرات التى كانت تنتمى إلى الحضارة والمفاهيم الإسلامية. كما تجدر الإشارة إلى أن بعض قادة الفكر الإسلامى دخلوا فى مناظرات ـ لا حصر لها ـ فى محاولة جادة لتحويل قادة الكاثوليكية الأوروبية إلى الإسلام بالإضافة إلى تلك المحاولات العديدة التى غمرها التاريخ العربى فى إسبانيا.

... وفى ظل تدهور العالم الإسلامى لأسباب عديدة ـ لا مجال لذكرها فى هذا البحث ـ تأتى المرحلة الأخطر فى تاريخ العالم الإسلامى، والمتمثلة فى تعرضه لحركة

الاستعمار الأوروبى منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وإلى الآن ـ نظراً للخلل الحادث فى التوازن بين الجانبين. ويوضح الكاتب الفرنسى «جاك فريمو[١٠٦] Jacques Fremeux» فى حديثه عن المقدمة التاريخية لحركة الاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر للمنطقة العربية الإسلامية ـ قائلاً: «... لم يكن العالم الإسلامى فى ذلك الوقت أقل ازدهاراً من العالم الغربى رغم الأقاويل والمزاعم الاستعمارية... بينما لم يكن التفكير العلمى والابتكار التقنى قد تقدما فى عالم الإسلام إلا قليلاً جداً منذ «العصر الذهبى» للحضارة الإسلامية المتمثل فى القرون الهجرية الخمسة الأولى، لأن حركة الأفكار فى العالم الإسلامى لم تؤد إلى تلك الزلزلة العملاقة التى تشكلها «فلسفة التنوير» بالنسبة للغرب، كما أن رغبة الاختراع والتحديث التى تميز الفئة الأكثر نشاطاً من المقاولين والتجار الأوروبيين كانت نادرة فى العالم الإسلامى. ونتج عن ذلك أن الشروط الضرورية من أجل نشوء الاقتصاد الرأسمالى والمجتمع الصناعى لم تكن متوفرة أو مجتمعة فى الجانب الإسلامى، وَشكَّلَ ذلك عامل اختلال تم حجبه بواسطة الوعى الحاد لدى الجانبين بالانتماء إلى عالمين دينيين وثقافيين وسياسيين مختلفين فى كلٍّ من ديار الإسلام والغرب الأوروبى...».

... وجاءت حركة الاستعمار الأوروبى تعبيراً عن «إرادة غربية» تسعى إلى السيطرة على العالم مستندة فى ذلك إلى عوامل القوة التى زودها بها «النمو الرأسمالى» و«فائض الإنتاج الصناعى» وما نتج عنه من تراكم للثروة أدى إلى البحث عن أسواق جديدة، ومجالات أوسع للاستثمار، وبالتالى مناطق جديدة للنفوذ الأوروبى. وعمدت «الحركة الاستعمارية» إلى فرض وتعميم نموذجها الحضارى الغربى خارج القارة الأوروبية عبر وسائل عديدة، يأتى فى مقدمتها «الاستشراق» و«التبشير» باعتبارهما خط هجوم أول فى عمليات الاختراق التى تسبق التدخل العسكرى المباشر لفرض الهيمنة والاحتلال. هذه الوسائل كانت موجهة بالأساس إلى المناطق الشاسعة من العالم الخاضعة للنفوذ المتداعى للإمبراطورية العثمانية ـ ومن بينها «المنطقة العربية الإسلامية»، باعتبارها، أى الحركة الاستعمارية، هى الوريث المرشح لخلافة الإمبراطورية الآفلة. هذا التحرك الأوروبى كانت تقوده وتوجهه ـ بالدرجة الأولى ـ دوافع ميراث الخوف والعداء القديم المتغلغل فى أحشاء الغرب الأوروبى تجاه العالم الإسلامى وحضارته الإسلامية.

لكن وللأسف الشديد، فإن هناك من العوامل التى ساعدت الغرب الاستعمارى على تحقيق أهدافه فى المنطقة، وهى عوامل تعود إلى العالم الإسلامى ذاته الذى تراجع إبداعه الحضارى نتيجة للجمود الفكرى الذى أصابه، واستنامته إلى الانتصارات القديمة، وإطباق الغفلة على أرجائه، وانعدام الوعى بما يجرى فى العالم الخارجى من تطورات، وعلى وجه الخصوص نهضة الغرب الأوروبى عدوه التاريخى اللدود. هذه العوامل أطلق عليها المفكر الإسلامى «مالك بن نبى» حالة «القابلية للاستعمار»[١٠٧] التى ساهمت فى نفاذ الإرادات الاستعمارية وإنجاح مخططاتها فى تكريس عمليات النهب الاقتصادى والتشويه الثقافى وما نتج عنه من تفسخ اجتماعى ـ وفرض للهيمنة العسكرية والتبعية السياسية على مقدرات الأمَّة الإسلامية. وهو ما نسميه نحن الآن «الهزيمة من الداخل» لأنه رغم مرور قرنين من الزمان على إخضاع المنطقة العربية والإسلامية للنفوذ الغربى، لم تتمكن الأمة الإسلامية إلى الآن من صياغة «مشروعها الحضارى الإسلامى للنهوض»، هذا المشروع الذى أثبتت وقائع وأحداث العقود الماضية أنه لن يتحقق النهوض بدونه بعد فشل التجارب والمشروعات المتعددة للنهضة والتنمية المستمدة من «النموذج الغربى» فهى امتداد بشكل أو بآخر لحالة «الانهزام من الداخل» وانعدام الثقة فى الذات الحضارية، ولن يتم تصحيح هذا الخلل إلا بالقضاء على أسباب الهزيمة الداخلية، وثقة الأمة فى استعادة دورها الحضارى المفقود. وفى هذا الإطار يجب عدم نسيان بل والتأكيد على أن «حضارة الغرب» تنطلق فى نظرتها إلى الآخرين من رؤيتها الذاتية المتعالية التى صاغت بها العالم من حولها.. ومنحت نفسها المبررات الكافية فى كيفية التعامل معهم انطلاقًا من هذه «الرؤية» التى يفسرها الدكتور «عبد الوهاب المسيرى»[١٠٨] بأن: «الإنسان الغربى حينما جَيَّشَ جيوشه وانطلق فى ربوع المعمورة كان يحمل خريطة معرفية فى وجدانه تجعل منه مركز الكون وذروة التقدم التاريخى.. ولذا حينما كان يحل على أرض لم يكن يرى سكانها.. وإذا رآهم فإنهم كانوا يمثلون بالنسبة له مادة استعمالية فإن قاوموه فهذا أكبر دليل على تخلفهم.. وعدم عقلانيتهم.. لأنهم لا يرون العالم من وجهة نظره».. فليس أمامنا إلا أن نكون ندّا حضاريًا للغرب أو نقبل بالمسخ والتشويه.

ونُعالج فى هذا الفصل ـ بإيجاز ـ عددًا من القضايا فى إطار مواجهة الغرب للإسلام منها: ميراث الخوف والعداء.. وغواية الاستشراق.. والدعوة إلى التفاهم والحوار، وذلك فى مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: ميراث الخوف والعداء

تاريخ العداء بين الشرق والغرب بدأ قبل ظهور الإسلام بوقت طويل، فالإغريقيين كانوا فى صراع تاريخى متواصل مع الفرس، والإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت بدورها فى حروب مستمرة مع الإمبراطورية الساسانية. من هذا المنطلق استمر العداء الغربى للفاتحين من العرب المسلمين لكن التَغيُّر كان فى الأيديولوچية فقط بوقوف المسيحيين الغربيين (بيزنطيين ولاتينيين) موقف العداء من الإسلام. فلم يكن الفُرْس هم الذين قاوموا العرب المنتصرين، وإنما الذى قاومهم هم المسيحيون البيزنطيون على الرغم من تقهقرهم. وأفسحت السّلطة العربية مجالاً للفرس والأتراك، فانتقلت العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد ثم القاهرة قبل أن تستقر فى القسطنطينية (الآستانة) فى ظل الإمبراطورية العثمانية (١٢٨١ ـ ١٩٢٤م). فالصراع بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى فى العصور الوسطى أنهاه أخيراً هؤلاء الأتراك عندما شنوا حملتهم غربًا عبر الأناضول بتمكنهم من الاستيلاء على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م وتَكْمُن أهمية هذا الحدث فى أن العديد من المؤرخين يعتبرونه بمثابة المؤشر الحقيقى على نهاية العصور الوسطى.

لقد وقفت «بيزنطة» مدافعة عن قضية المسيحية وحقيقة المسيحية، بينما وقفت **«الخلافة»** مدافعة عن قضية الإسلام وحقيقة الإسلام. فالطريقة التى نظر من خلالها المسيحيون والمسلمون لبعضهم البعض دون أن يلتقوا، قد حددها بدرجة كبيرة هذا الموقف من الحرب الدائمة بين الجانبين. فالحرب كانت بمثابة الخلفية التاريخية للمناظرات الجدلية الهجومية لكلٍّ منهما. وبينما أبْقَت الجيوش العربية والإسلامية بعضها بعضًا فى حالة استعداد، أو دخلت فى قتال على الحدود، فإن صراعًا فكريًا قد بدأ بعد فتح المسلمين لسوريا، وتأسيس الدولة الأموية فى دمشق (٦٦١ - ٧٥٠م) ويبدو أن المسيحيين هم الذين بدءوا يجادلون المسلمين من خلال هجوم أساسى مُكرَّس

ضد الإسلام. فقد نَظَرَ المسيحيون ـ سواء من عاش منهم داخل الأراضى الإسلامية أو فى بيزنطة ـ إلى الإسلام فى تلك القرون الأولى على أنه بدعة عن المسيحية باعتبارها الدين الواحد الصحيح وفقًا لاعتقادهم. فمنذ أواخر القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الميلادى كان هناك ما يشبه الضغط الاجتماعى والسياسى والحضارى والدينى من جانب المسيحية داخل الأراضى الإسلامية فتمثل الضغط السياسى والاجتماعى فى دفاع مستميت عن المميزات الممنوحة للمجتمعات المسيحية من جانب الدولة الإسلامية، وكانت على سبيل المثال فى شكل معاهدات مبرمة بين الفاتحين العرب وبين المدن والمناطق المسيحية التى استسلمت للفاتحين المسلمين... بينما تَمثَّل «الضغط الحضارى» فى استغلال الموروث الحضارى الذى تتمتع به المجتمعات المسيحية المهزومة فى مواجهة الفاتحين العرب أصحاب القَدْر اليسير من الحضارة والتعليم. أما «الضغط الدينى» فقد كان من أكثر الضغوط أهمية، حيث طرح المسيحيون تساؤلات عن الإسلام، وكان على المسلمين أن يجدوا حلاً لها، وبهذه الطريقة اضطر المسلمون إلى تحديد موقفهم ليس فقط على المستوى الاجتماعى والسياسى كمسلمين تجاه المسيحيين، ولكن أيضًا على المستوى الدينى لعلاقة الإسلام إزاء المسيحية. وكانت النتيجة أن تبلورت فى فترة الدولة الأموية القضايا الرئيسة للجدل أو الحوار الإسلامى المسيحى. وعلى هذا الصعيد أورد المسلمون حججهم الدامغة ضد المسيحيين ـ على أسُس قرآنية ـ فيما يتعلق باعتقادهم عن المسيح مُنْكرين بشدة أى طبيعة إلهية للمسيح عليه السلام، معتبرين أن انتصارات الجيوش العربية الإسلامية بمثابة دليل على عزة الله للإسلام. ومن جانب المسيحيين لدينا من تلك الفترة الأموية معالجة القديس «يوحنا الدمشقى» الذى نظر للإسلام على أنه عدو للمسيحية.

وفى ظل الحكم العباسى (٧٥٠م - ١٢٥٨م) وخاصةً فى الفترة الوسيطة من القرن التاسع الميلادى فى ظل حُكْم خلفاء مثل المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) والمتوكل (٨٤٧ - ٨٦١م) اشتدت موجة المناظرات الجدلية. فعلى المستوى الحضارى فإن المسيحيين داخل الأراضى الإسلامية كانوا لا يزالون وحتى حكم الخليفة المتوكل يشكلون ضغوطًا من خلال تلقى المسلمين العلم عنهم، فكانوا راغبين فى التعلم فى مجالات الفلسفة والطب والعلوم، وشهد القرن التاسع الميلادى نموّا وازدهارًا فى الأدب العربى مع تطور فَعَّال وتبلور للعلوم الدينية الإسلامية مثل (التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام).

وتحولت الضغوط المبكرة من المسيحية على الإسلام إلى ضغط متزايد من الإسلام على المسيحية داخل الأراضى الإسلامية. وظلت بعض التفنيدات الفقهية الرئيسة للمسيحية باقية كتلك التى أثارها مفكر المعتزلة الفقيه عبد الجبار وغيره من الفقهاء والمفكرين المسلمين مثل الباقلانّى وابن حزم الأندلسى وغيرهم.

. . . ولعل البون الشاسع بين نظرة **الشرق الإسلامى والغرب المسيحى** أحدهما إلى الآخر على مدار العصور الوسطى ناجم عن ذلك الباعث الذى جعل المسيحى الغربى لا يستطيع له ردّا. . والذى يجعل من الشرق مثار أعاجيبه وأحلامه. . أمّا الشرقى المسلم فلم يكن يتردد لحظة فى قبول كل خُرافة تتحدث عن بلاد الغرب، لكنه لم يكن أبدًا مصدرًا للأساطير فى خياله. . هذا ما يشير إليه المستشرق «جوستاف جروينباوم»[١٠٩] فى كتابه عن «الإسلام فى العصور الوسطى ـ Medeval Islam» من أن المسيحيين الغربيين الذين احتكوا بالفكر الإسلامى وسلوك المسلمين، كانوا يشعرون إزاءهم بإعجاب شديد، وكثيرًا ما كانوا يجدون أنفسهم يحاكونهم فى طرائقهم وأساليبهم. . «وكم كانت أبهة قُرطبة» تُبهرُ عين الغرب اللاتينى وتُثير خياله. . بل لقد أهمل الأسبان المسيحيون تراثهم القديم خلال القرن التاسع الميلادى. . إيثارًا منهم للتراث الإسلامى. . . وراح **«الغرب اللاتينى»** فى زمن مبكر من العصور الوسطى يتقبل الفكرة القائلة بأن **«الحضارة تفيض من الشرق على الغرب»** . . . أما عن العلاقات بين المسلمين والغرب اللاتينى، وآراء كلٍّ منهما فى الآخر، هذه العلاقات والآراء اللاتينية كانت مختلفة تمامًا عن تلك البيزنطية. وعلى الرغم من أن الفتوحات الإسلامية للأراضى الرومانية الغربية لم تكن أقل قوة عن مثيلتها من فتوحات الأراضى الرومانية الشرقية ـ فقد تم الاستيلاء على شمال أفريقيا وإسبانيا وجنوبى فرنسا وجنوبى إيطاليا ومعظم جزر البحر المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع من الميلاد، فإن هذه الأحداث أثارت فزعًا فى الغرب، ورغم ذلك فقد استغرق الأمر زهاء ثلاثة قرون قبل تبلور عداوة واضحة على المستويين الأيديولوچى والدينى عبر عنها الفكر والأدب، وفى الحقيقة نجد أنه بينما شنت **«بيزنطة كإمبراطورية واحدة»** حربًا واحدة مستمرة رغم تغيير الجبهات أرضًا وبحرًا ومعاناتها لضغط روحى متزايد من الإسلام منذ بزوغه ومع تصاعده، فإن الغرب اللاتينى تلقى ضربته مع مطلع القرن الثامن وأعيدت الكرة فى القرن التاسع، ثم بدأ يفيق ليحارب حروبًا مختلفة فى بلاد مختلفة. وكشفت الحملات

الصليبية التى وقف وراءها باباوات الكنيسة الكاثوليكية عن غرب عدوانى. ولكنها مَكَّنَتْ هذه المنطقة من أوروبا المنتمية إلى «**الغرب اللاتينى**» التى ما زالت على درجة كبيرة من بربريتها من الاتصال على مدى أكثر مع العالم الخارجى بما فيه العالم الإسلامى وحضارته الأرقى.

. . . **وجدير بالملاحظة أن الغرب عمومًا بشقيه البيزنطى واللاتينى** بعد أن قطع علاقاته مع شطآن البحر المتوسط التى فتحها المسلمون، عاد واستأنف بل وكَثَّفَ من علاقاته التجارية مع الجانب الإسلامى من البحر. وبالنسبة «**للغرب اللاتينى**» واعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى فصاعداً عُزِيَتْ نهضة المدن الإيطالية إلى حد بعيد إلى هذه الصلات التجارية مع المسلمين. وإلى جانب المغزى الدينى والاجتماعى السياسى للعلاقات بين الغرب اللاتينى والعالم الإسلامى، فإن هذه العلاقات كانت لها أهميتها البالغة على المستوى الحضارى، وإذا كان الغرب اللاتينى قد اقتبس معظم أساطيره ورواياته عن النبى محمد والإسلام من الرومان البيزنطيين والمسيحيين العرب فى وقت الحملات الصليبية مُضيفًا إليها من خيالاته فإن الإسلام كديانة قد نُظرَ إليه على كونه كيانًا سلبيًا، بينما لم يُنْظَر بنفس المنظور إلى الشرق الحضارى، فمناطق إسبانيا وصقلية كانت نوعًا من أرض العجائب التى أضاف إليها الخيال الغربى فى سهولة معجزات إضافية، وأكثر الأمور أهمية على ذلك كان فيما يتعلق بالفلسفة والعلوم والطب والتكنولوچيا، حيث كان الغرب مستعدًا لتلقى التعليم من العرب فى صقلية وإسبانيا فتم احترام العلم العربى، كما أن المعلومات التى تم اكتسابها عن طريق الأعمال المترجمة من العربية إلى اللاتينية بصورة مكثفة كانت حافزاً على ظهور عصر النهضة الأوروبية الأولى فى القرن الثانى عشر، حيث كان لها تأثيرها الملموس على التعليم فى كل أرجاء أوروبا على مدة القرن الثالث عشر الميلادى. وجدير بالإشارة أن العلاقات الحضارية بين العالم الإسلامى وبيزنطة التى اتسمت فى مجملها بالنديَّة قد اختلفت عن تلك التى كانت بين العالم الإسلامى والغرب اللاتينى الذى تتلمذ على الحضارة الإسلامية انطلاقًا من واقع تخلفه الحضارى آنذاك.

. . إن دراسة واعية لآراء المسلمين والمسيحيين عن بعضهما البعض فى العصور الوسطى تُظْهر سوء الفهم المتبادل بينهما. وقد لعبت عوامل كثيرة دورها فى ذلك بما

فيها العوامل النفسية خصوصًا من الجانب الغربى التى تمثلت فى الخوف من قوة أكثر تفوقًا وفى وجود ديانة منافسه. ومنها أيضًا أن كلا الجانبين قد فَسَّرَ ديانة الآخر وفق معاييره الخاصة. فقد رأى المسلمون فى أهل المسيحية مؤمنين ضَلّوا الطريق، ولكن يظل لهم احترام أهل الكتاب، بينما رأت مسيحية العصور الوسطى فى المسلمين مؤمنين أضلهم الشر والجهل إلى حد كبير. وبهذا لم يتمكن أى طرف من جعل مقولة الطرف الآخر بمثابة الحقيقة المطلقة.

لقد كان تأثير الإسلام فى أوروبا (فى القرون الوسطى) شاملاً الكثير من الميادين، ومهيمنًا على جوانب متعددة. . وإذا كان هذا التأثير قد عَمَّ - بدرجة كبيرة أو صغيرة - مستويات الحياة الأوروبية جميعًا، وطال أكثر المجالات والبنى اختلافًا وتَبَاعُدًا - بما فى ذلك النواحى المعيشية والتجارية والاقتصادية والسياسية والآداب والفلسفة والعلوم والدين. . . ويُدْرك العالم كله اليوم ويعى بوضوح ذلك الدور الفَعَّال الذى لعبته شعوب الشرق الأوسط بثقافاتها وتجاربها الروحية فى نشوء الحضارة الأوروبية وتطورها. . فإن تأثر موقف مسيحية القرون الوسطى بالإسلام يرجع إلى عاملين رئيسين:

الأول: ضرورة التّعَلّم من الإسلام كونه الأقوى والأعلم.

الثانى: التصارع معه كعقيدة غريبة ومعادية لها.

. . فى العصر الوسيط تحديدًا، أى فى زمن المبادلات الثقافية الأكثر فَعَالية، تشكلت فى الوعى المسيحى (شعوريًا ولا شعوريًا) القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام، وهى التى نشأت فى كثير من جوانبها بارتباط مسبق وارتهان شرطى بنوع وطبيعة الموقف التقليدى للكنيسة الكاثوليكية من الإسلام. وبوجه عام، فإن صورة الإسلام المتكونة آنذاك فى أذهان الأوروبيين عبارة عن مزيج متناقض لمعارف موضوعية أصابتها تشويهات خطيرة، لكنها اشتملت فى الوقت ذاته على تصورات بالغة التوهم وفى منتهى الخيالية، حيث هيمنت بشكل ثابت وراسخ لمدة تاريخية طويلة على عقل الإنسان الأوروبى وأثرت بالتالى على منطقه ومداركه تجاه الإسلام وحضارته. ولهذا فإن التصورات الغربية المعاصرة حول الدين الإسلامى لم تتكون وترتسم فى صفحة بيضاء نقية، وإنما انعكست على سطح مرآة قديمة مشوهة؛ إذ وَرِثَ سكان أوروبا

المعاصرون عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة من الأفكار المتجذرة حول الإسلام، التى كانت تتغير تدريجيًا فى إطارها الخارجى فقط، تبعًا لتغير الظروف فى أوروبا ذاتها، وتبعًا لطبيعة علاقتها ومواقفها المستجدة نسبيًا مع البلدان الإسلامية، بينما ظلت التصورات المشوهة كامنة فى الوعى الأوروبى تجاه الإسلام والمسلمين.

وإذا كانت التصورات الأوروبية عن الإسلام فى القرون الوسطى قد تشكلت فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر للميلاد.. فإن حقيقة هذه التصورات ومضامينها قد تكونت فى كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحى الشرقى للعقيدة الإسلامية. فعلى سبيل المثال نجد أن المؤلفات التى وضعها يوحنا الدمشقى(*) (المتوفى سنة ٧٥٠م) تعد من أقدم الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام ـ حيث ناقش الإسلام باعتباره «بدْعَة» مُشددًا على أن المسلمين يتفقون مع المسيحيين فى الإيمان بالإله الواحد، ولكنهم لا يعترفون بالعقائد الأساسية للمسيحية وفى مقدمتها (الطبيعة الإلهية للمسيح وصلبه)، الأمر الذى يقلل ـ من وجهة نظره بالطبع ـ من شأن تعاليم الإسلام.

لهذا، فإن (يوحنا الدمشقى) يرفض مجموعة كبيرة من اليقينيات الإسلامية، التى يرى أنه لا يمكن للمسيحيين أن يتقبلوا التعايش معها مطلقًا مثل القول بأن محمدًا رسولٌ من الله، وأنه «خاتم الأنبياء والمرسلين»، وأن القرآن هو كلمة الله المنزلة على محمد من السماء، وبهذا كان يوحنا الدمشقى أول من وضع بذرة الاستشراق والدراسات الاستشراقية فى أوروبا المسيحية كما يرى العديد من الباحثين.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك قصة خرافية[١١٠] كانت قد انتشرت فى أوساط المسيحيين الشرقيين مؤداها أن النبى محمدًا ﷺ كان فى البداية تلميذًا للراهب النسطورى «سرجيوس تجيرا»، زاعمين أنه تلقى منه بعض المعلومات الأساسية عن التوراة والإنجيل، وبعد ذلك أعلن نفسه نبيًا وكوَّن عقيدة خاصة به... والواقع أن التصورات المتكونة عن النبى وعن الإسلام باعتباره «بدعة مسيحية» مرتدة ومنشقة عنها

(*) يوحنا الدمشقى (القديس) (٦٧٥- ٧٥٠م) ـ ولد فى دمشق. من آباء ومعلمى الكنيسة ـ حفيد منصور بن سرجون رئيس ديوان المالية على عهد معاوية بن أبى سفيان. له مؤلفات فى اللاهوت والفلسفة والتاريخ والشعر والألوان الدينية. مهد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت فى أوروبا، وترجمت بعض مؤلفاته إلى العربية، ومنها كتابه «منهل المعرفة».

إنما ترجع إلى المسيحيين الشرقيين وعلى الأخص مسيحيى سورية التى انتقلت منهم إلى البيزنطيين الذين نقلوها بدورهم إلى الأوروبيين. وبشكل عام رسخت فى مدارك الأوروبيين فى القرون الوسطى مجموعة من الافتراءات عن الإسلام تتسم كلها بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، فالإسلام عندهم مجرد عقيدة ابتدعها محمد، وإنها دين الجبر والانحلال الخلقى والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، وقبل كل ذلك وبعده أنها ديانة العنف والقسوة، وانسجامًا مع هذا الموقف المعادى فقد صُوِّرَ الإسلام على هيئة نموذج قبيح يتعارض ويتناقض كليةً مع النموذج المثالى للمسيحية بوصفها الديانة الحقيقية التى تتميز بالأخلاق الصارمة وروح السلام، وبأنها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوة السلاح، كما يرون فى الإسلام.

لكن يجب التنويه بأن تصورات المسيحيين حول المبادئ العقيدية للمسلمين لم تكن واحدة، بل تحمل ألوانًا وتوجهات شتى غير متطابقة دائمًا من «دانتى» إلى «بطرس المبجل» وصولاً إلى «توما الأكوينى»، فإلى جانب الاختلافات والتزييفات وُجدَتْ معارف واقعية عن الإسلام، وإلى جانب «الروح العدائية» وُجدَتْ أيضًا تيارات مدركة بصورة جيدة للقضايا والمسائل الروحية المشتركة... وفى كل الأحوال، فإن التصورات التى تكونت فى أذهان الأوروبيين عن الإسلام، وفق القوالب النمطية التى سادت فى القرون الوسطى، توضح الوقائع المؤكدة أنها كانت كامنة وراسخة بصورة عجيبة، نظرًا لأن تأثيراتها ظلت واضحة على مدى القرون اللاحقة.

... فى القرن السادس عشر حدثت تغييرات كبرى فى موقف المسيحيين إزاء الإسلام. حيث بدأ الأوروبيون يلمسون كيف أن التفوق الثقافى أخذ يتحول إلى جانبهم، وبدءًا من نهاية العصر الوسيط وبداية عصر النهضة لم يعد الأوروبيون ينظرون إلى الإسلام بوصفه منافسًا جديًا فى ميدان العقل والعلم، ولكن ما إن اقتربت الجيوش التركية العثمانية من فيينا سنة ١٥٢٩م حتى تغيرت تلك اللهجة فأصبحت أكثر عدائية وأكثر حدة. وانبعثت من جديد قوالب وتصورات القرون الوسطى التقليدية، فتم التركيز على وصف الإسلام بأنه دين العنف الذى يخدم المسيح الدَّجال، وأن المسلمين معادون للعقل والعقلانية. ويمكن التأكيد بشكل عام بأنه خلال الفترة من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر نَمَتْ «المعارف الواقعية» عن الإسلام

لكن بصورة بطيئة لأقصى الحدود، وضمن وسط محدود جدّا من الدوائر العلمية الأوروبية، وتكونت فى الوعى الاجتماعى الأوروبى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر «صورة مزدوجة» عن الإسلام فمن جهة، تم تصوره على أنه بمثابة تهديد للمصالح الغربية دولاً وأفرادًا، هذا التهديد يتمثل فى نزوع المسلمين إلى الرابطة أو الوحدة الإسلامية، وأيضًا لكونه عقيدة لغير المتحضرين المعادين لرسالة أوروبا الرامية للارتقاء بالإنسانية الكونية. . . لكن، ومن جهة أخرى، رأت الدوائر الإستراتيجية الغربية فى الإسلام «عنصر استقرار» و «عامل تثبيت» يمكن استخدامه فى إطار إطاعة الحكام والمحافظة على السلطات الصديقة «سُلْطات الاحتلال».

. . . وكانت موجات عارمة من القادمين من أوروبا قد اجتاحت بلدان الشرق فى القرن التاسع عشر بعد إتمام احتلال بلدان العالم الإسلامى، شملت هذه الموجات: العسكريين، والتجار، والمبشرين، والإداريين، والعلماء من مختلف الاختصاصات، فانفتحت أمام الأوروبيين إمكانات عريضة للتعرف على عالم جديد، وأصبح الاهتمام بالعالم الإسلامى تُمْليه فى تلك المرحلة الاحتياجات العملية والمصالح الحيوية للبلدان الأوروبية التى أصبح عنوانها: (العلاقة العضوية المتبادلة ما بين «علم الإسلاميات» و«الأيديولوچيا الاستعمارية»).

. . . حول هذه المرحلة وفى ظل «الهيمنة الغربية على العالم الإسلامى» يعقد «الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده»[١١١] مقارنة بين المسيحية والإسلام فى كتابه «الإسلام دين العلم والمدنية» وَيَعْجَب لما آل إليه حال كلٌّ من أصحاب الديانتين، يقول: «. . . الديانة المسيحية بُنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية. ومن وصايا الإنجيل: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم على الأجساد وهى فانية، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهى لله وحده، ومن يقف على أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى المنتسبين فى عقائدهم إليه، يجدهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش منها، ولا يقفون عند حد فى استيفاء لذّاتها، ويسارعون فى افتتاح الممالك والتغَلُّب على الأقطار الشائعة ويخترعون كل يوم فنّا

جديداً من فنون الحرب ويُبْدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة، ويستعملها بعضهم فى بعض، ويصولون بها على غيرهم، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال. . . هذا ما صار إليه المسيحيون. أما الديانة الإسلامية، فقد وُضِعَ أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها. فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكمًا لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها. . ومن تأمل فى آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] أيقن أن من صبغ بهذا الدين، فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها والسعى إليها بقدر الطاقة البشرية فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع عن تغلب غيره عليه، ومن لاحظ أن الشرع الإسلامى حرّم المراهنة إلا فى السباق والرماية انكشف له مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها. . ولكن مع ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات. . إذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ولا فى اختراع الآلات. حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان يجب أول واجب عليهم، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم فى الدين، واستكانوا لهم ورضخوا لأحكامهم. . . ومن وازن بين الديانتين حارَ فكره كيف تم اختراع تلك الآلات الحربية بأيدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية؟ وكيف أحكمت الحصون ودُرِّعَت البواخر وأخذَتْ مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب؟!!!».

وعلى الرغم من عملية تبادل الأدوار بين المسيحيين والمسلمين التى أشار إليها الأستاذ الإمام فى أواخر القرن التاسع عشر والمستمرة إلى الآن. . . لم يمنع تراجع المسلمين الغرب من استمرار نظرة الشك والريبة وتنامى شعور العداء.

وعن هذه الحقيقة يقول الدكتور «مراد هوفمان»(*)[١١٢] لقد: «ظل الغرب على

(*) مراد هوفمان ألمانى حاصل على الدكتوراه فى القانون من أمريكا، نشأ كاثوليكيًا ثم قاده فكره وضميره إلى الإسلام. . وهو خبير فى شئون الغرب الثقافية والحضارية. . كما كان يشغل منصب «خبير نووى» بحلف شمال الأطلنطى (الناتو).

مدى أكثر من قرن ونصف يرمى الإسلام بالجبْرية، ويتهم المسلمين بالاستسلام والخنوع لمصيرهم المحتوم. . . وإذا بهذا الغرب منذ الثلث الأخير من القرن العشرين وحتى الآن، يرمى الإسلام بالعكس تمامًا، ويُشيع بأن الإسلام دين ثورى يدعو للتمرد والعصيان، وأن المسلمين إرهابيون سفاكون للدماء، راديكاليون أعداء للسلام».

ـ فهل يعتبر المسلمون؟!!!

* * *

المبحث الثانى: غواية الاستشراق

من مظاهر العداوة العمياء لدى أوروبا/ القرون الوسطى أنها عندما رأت فى الدولة الإسلامية «الخصم اللدود» انبرت تمارس أسلوب الهجوم العنيف القائم على التعصب والعداء من أجل الحد من أى نفوذ قد تكتسبه هذه القوة المنافسة. ومن هنا أصبح يُنْظَر إلى الإسلام على أنه «إلغاء للمسيحية» وأن رسوله محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو «عدو للمسيح»، فكان الغرب يرى فى العالم الإسلامى عالَمًا مضاداً لأوروبا، وبذلك أصبح موضع الشك والريبة. وهكذا جابهت أوروبا المسيحية الشرق الإسلامى مجابهة ثقافية ودينية وسياسية وعسكرية. ومنذ ذلك الحين تقرر مجرى العلاقة بين الشرق والغرب. فأوروبا ما بعد الحروب الصليبية لم تتخلص مطلقًا من عدائها الذى شحنت به نفسها إبان تلك الحروب، ولهذا كان من السهولة بمكان أن تتحول رغبتها القديمة فى الوقوف فى وجه خصمها الإسلامى إلى تصميم على السيطرة، هذا التصميم الذى كان بمثابة الدافع الحقيقى لشعور الإمبرياليين فى الغرب منذ غزو نابليون للمشرق الإسلامى.

. . . لقد تحولت العلاقة بين الغرب المسيحى والشرق المسلم مع استمرار انحسار التهديد العثمانى لأوروبا من عداوة تاريخية إلى ارتباك يخالطه الانبهار. ومع هذا التحول الذى أحدثته الظروف السياسية أصبح ابتكار «شرق أدبى» أمراً ذا فائدة قصوى للمخيلة الغربية. وبقدر ما راح الشرق يرزح تحت قبضة القوى الأوروبية راحت صورته تُصْقَل عبر الأدب والرسم والموسيقى والأزياء، فحكايات «ألف ليلة وليلة» تزامن ظهورها فى أوروبا مع هزيمة الأتراك. وانتشار زى العمائم فى الغرب جاء فى أعقاب حملة نابليون على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر. وما إن جاء القرن التاسع عشر حتى برز تحول واضح فى نظرة الأوروبى إلى الشرق التى انقلبت من «توجس الجاهل إلى ازدراء العارف». وراح هذا الموقف الجديد يفعل فعله فى صياغة المسميات

الاجتماعية والثقافية، فابتكرت الصور الجاهزة، ووضعت المدلولات التى كانت تتوالى لتؤكد الواحدة الأخرى.

وكانت عقيدة «الاستشراق» مرتبطة ارتباطًا تامًا بالسيطرة الغربية، إلا أن تسريب هذه العقيدة لم يعتمد على الألاعيب المألوفة بل اتخذ نهجًا أكثر خبثًا وخفاءً لترويج معتقدات منتقاة عن سابق دراسة وتصميم تم خلالها تجنيد العلم والتاريخ فى هذا الشأن. وكان هذا النهج بالرغم من خفائه قويًا وفعالاً؛ إذ أنه اعتمد على خبرات شتى فى الشئون الدينية والثقافية والاجتماعية؛ إذ كان على الغرب أن يُعيد «صياغة الشرق» من جديد كى يفهمه، وكان ثمة جهد دءوب لاعتماد سياسة التشويه والتلفيق التى تمكنه من التغلغل والسيطرة. فالتسلط السياسى والنهب الاقتصادى كانا يحتاجان إلى لغة منمقة لتظهرهما وكأنهما ليسا سوى رسالتى حضارة وتمدين. فصورة الأوروبى المستعمر يجب أن تبقى صورة مُشَرِّفة.. «إنه لم يأت كمستغل، وإنما جاء كصاحب رسالة تنويرية، كما أنه لا يسعى إلى مجرد المكسب، بل هو يؤدى واجبه نحو خالقه عندما يمد يد المساعدة إلى من لم يحالفهم الحظ ليرتقوا إلى مستواه الرفيع»[١١٣]. إنه شعار «عبء الرجل الأبيض» الذى أتاح له أن يُخْضع قارات بأكملها.

لقد أدْرِج مفهوم «الاستشراق ـ Orinetalism» فى قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨م بمعنى الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام ـ وهذ هو المعنى الشائع فى ربوع العالم العربى الإسلامى ـ فالاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى، فكلمة «مستشرق ـ Orientalist» تطلق فى معناها العام على كل عَالم غربى يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه، ووسطه، وأدناه فى كافة ميادينه الثقافية والحضارية والدينية.

وعلى الرغم من تشعب مجالات وبؤر اهتمام الاستشراق، وامتداده على مساحة زمنية طويلة، وتعدد وجهات النظر التى يقدمها فى ظل تعدد الجهات التى وقفت خلفه وساندته، والظروف التى صاحبته، والتوجهات التى انطلق منها ـ فإنه يمكن القول بأن هناك «قضايا كبرى» مثلت جوهر اهتمام الدراسات الاستشراقية وغايتها وتتمثل فى العديد من الأهداف:

أولها: حماية العقل الأوروبى والحفاظ على العقيدة المسيحية السائدة فى أوروبا،

وارتبط هذا الهدف بنشأة الاستشراق، حيث كان الهدف الأساسى هو حماية العقل الأوروبى من تأثيرات الثقافة الإسلامية الغازية. . فالمستشرقون يكتبون عن الشرق والإسلام لأبناء ثقافتهم لتحقيق الوقاية لهم بغض النظر عن تحرى الحقيقة فيما يكتبون.

ثانى هذه الأهداف: يتمثل فى محاولات التشويه الثقافى للأمم والشعوب غير الأوروبية ومحاولة التأثير عليها انطلاقًا من نزعة عرقية عنصرية متمركزة حول الذات، لا ترى الكمال الثقافى متمثلاً إلا فى الحضارة الأوروبية. ومن ثم، فإن من مهامهم العمل على تعميم هذا النموذج على الشعوب الأخرى سعيًا لإلحاقها بركب الحضارة الأوروبية، لتظل فى وضع التابع الذى لا يشعر بتبعيته. . وللأسف فقد نجحوا إلى حد كبير فى تحقيق هذا الهدف من خلال تغريب النّخَب الثقافية التى صارت امتداداً لهم فى كل بلد من بلدان العالم العربى والإسلامى.

أما ثالث هذه الأهداف: فيتمثل فى تسهيل مهمة السيطرة على «الشرق» وإضعاف مقاومته، وهو الهدف الأكثر بروزًا وأهمية فى تاريخ الحركة الاستشراقية. وفى هذا يقول العلاَّمة **«محمود محمد شاكر»**[١١٤] فى كتابه الهام «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا»: «كان من الأهداف والوسائل، بعثة أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادة تامة لتسيح فى أرض الإسلام، فتجمع الكتب شراءً أو سرقة، وتلاقى الخاصة من العلماء، وتخالط العامة من المثقفين والدهماء، وتُدَوِّن فى العقول وفى القراطيس ما عسى أن ينفعهم فى هذا العالم الذى استعصى على المسيحية واستعلى عليها قرونًا طويلة. . . يجوبون أرجاء هذا العالم ويعودون إلى بلادهم لإتمام عملين عظيمين: **أولهما:** إمداد علماء اليقظة الأوروبية بهذه الكنوز، **وثانيهما:** إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام. . . وكان أهم ما لاحظوه أو خبروه، هذه الغفلة المطبقة على أرض الإسلام، التى أورثهم إياها الاستنامة إلى النصر القديم على المسيحية فى الفتوحات الأولى، والاغترار بالنصر الحادث بفتح القسطنطينية، ثم سماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم مع من يخالفهم فى الدين، ولا سيما اليهود والنصارى، لأنهم أهل كتاب وذمة، ولأنهم أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام». . ومن يومئذ نشأت هذه الطبقة من الأوروبيين الذين عُرفوا فيما بعد باسم «المستشرقين» وهم أهم وأعظم طبقة تمخضت

عنها اليقظة الأوروبية، لأنهم جُنْد المسيحية الشمالية، الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر. . فلا همّ لهم ليلاً ونهاراً إلا حيازة كنوز علم دار الإسلام بكل سبيل، وبفضلهم وحدهم وبفضل ملاحظاتهم التى جمعوها من السياحة فى ديار المسلمين وبذلوها لملوك المسيحية، نشأت طبقة من الساسة الذين يعدون ما استطاعوا من عدة لرد غائلة الإسلام ثم قهره فى عقر دياره. . فعلى علم وخبرة وتجارب المستشرقين، رست دعائم «الاستعمار» ورسخت قواعد «التبشير».

نظرة العقلانية الأوروبية إلى الإسلام

بدأ الأوروبيون خلال القرن السابع عشر ينظرون إلى الدين الإسلامى الذى كان ينافس المسيحية بنظرة محايدة، بل وبشىء من التعاطف. . ولعلهم كانوا ينقبون فيه بصورة لا شعورية عن قيم الاتجاه العقلانى الجديد الذى بدأ يسود القارة الأوروبية والذى كان مخالفًا للديانة المسيحية. فعلى مدى هذا القرن انبرى الكثير من الكتاب للدفاع عن الإسلام ضد الإجحاف الذى لحق به فى العصور الوسطى، وضد محاولات المنتقصين من قدره، وذهبوا فى كتاباتهم إلى إثبات قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية، وكان «ريشار سيمون ـ Richard Simon»[١١٥] أحد هؤلاء الكتاب، فقد كان كاثوليكيًا مخلصًا لكن سلامة تكوينه العلمى جعلته يكافح ضد التحريف المتزمت للحقائق الموضوعية فى قراءته للكتاب المقدس ودراسة العالم المسيحى الشرقى. ولقد عالج فى كتابه «التاريخ النقدى لعقائد وعادات أمم الشرق» (الصادر فى عام ١٦٦٤م) عادات وطقوس المسيحيين الشرقيين، ثم عادات وعبادات المسلمين التى عرضها بوضوح واتزان مستنداً إلى كتاب لأحد فقهاء الإسلام دونما قدح أو انتقاص، بل إنه كان يظهر التقدير وحتى الإعجاب نحو التعاليم الرائعة للأخلاقيين الإسلاميين، ثم جاء المستشرق «أ. رلان ـ A.Reland» الذى كان أعمق تخصصًا فى الإسلاميات من سيمون فكتب فى عام ١٧٠٥م عن الإسلام من وجهة نظر موضوعية مستنداً إلى مصادر إسلامية فقط. كما كتب الفيلسوف «بيير بايل ـ P.Bayle» وهو من المعجبين بالتسامح الإسلامى فى الطبعة الأولى من «القاموس النقدى ـ Dictionnaire critique» الصادر فى عام ١٦٩٧م عن حياة النبى محمد ﷺ بموضوعية، وقد راجع ما كتبه فى الطبعات التالية على ضوء الأبحاث التى ظهرت بعد الطبعة الأولى. فقد

استشهد «بايل» وكثيرون غيره بتسامح الإمبراطورية العثمانية إزاء جميع أنواع الأقليات الدينية مشيراً إلى لجوء أتباع مذهب «كالفن» من المسيحيين البروتستانت الذين تطلعوا إلى الباب العالى فى تركيا فى هروبهم من الاضطهاد الكاثوليكى فى غرب أوروبا أو الأرثوذكسى فى روسيا.

وانتقل الجيل التالى من العقلانيين الأوروبيين من الموضوعية فى تناولهم لدراسة الإسلام إلى مرحلة الإعجاب، حيث إنهم كانوا ينظرون إلى الدين الإسلامى باعتباره «دينًا عقلانيًا» بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل، وينطوى على حد أدنى من المفاهيم الأسطورية والطقوس الصوفية. ثم إن الإسلام وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة فى المجتمع؛ لأنه ـ أى الإسلام ـ كان من وجهة نظرهم قريبًا جدًا من الدين الطبيعى الذى كان يعتقد به معظم «رجال عصر التنوير».

. . وفى حقيقة الأمر، فإن نظرة الغرب المسيحى خلال القرن الثامن عشر إلى الشرق الإسلامى كانت تسودها نظرة أخوية متفهمة، وقد مكّنت الفكرة القائلة بتساوى المواهب الطبيعية لدى جميع الناس من القيام بدراسة نقدية للتهم التى وجهتها العصور السابقة إلى العالم الإسلامى.

اتجاهات القرن التاسع عشر

. . . ظهرت فى القرن التاسع عشر «ثلاثة اتجاهات» شكّلَت نظرة الغرب المسيحى إلى العَالَم: أول هذه الاتجاهات يتمثل فى سيادة الشعور بالتفوق الغربى يصاحبه ازدراء للحضارات الأخرى، الاتجاه الثانى يشير إلى الميل إلى الرومانسية فى تناول كل ما يتعلق بالشرق. . ويتعلق الاتجاه الثالث بظهور التخصصات العلمية التى أبدت اهتمامًا ملحوظًا بالعصور الماضية. على أن هذه الاتجاهات كانت متكاملة فيما بينها أكثر منها متعارضة، وذلك على الرغم من المظاهر التى قد توحى بغير ذلك. فلم ينشأ الميل إلى كل ما هو غريب من تغير فى العلاقات بين الشرق والغرب، بل من التحول الداخلى الذى طرأ على حساسية الغرب، والتى أصبحت تتوق إلى الغريب والعجيب. فالدراسات الشرقية التى شاعت مجدداً والتى بدت بالفعل وكأنها عصر نهضة، زودت

الرومانتيكيين بكنوز من المعلومات. ومع ذلك فإن جذور الاستشراق العلمى ترجع إلى اهتمامات «حركة التنوير ـ Enlightenment». وكان كل شخص فى أوروبا يرغب فى التعرف بطريقة وافية على «لغات الشرق الأدنى وحضاراته» يتوجه إلى مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس، التى أسستها حكومة المؤتمر الثورية فى مارس ١٧٩٥م.

كما أن اللجوء إلى الموضوعية والعمل التخصصى الشاق كان ينسجم مع اتجاهات العصر العميقة، فى وقت كان فيه البحث العلمى المتعمق فى طور التنظيم، وفى مجتمع كانت **«الرأسمالية»** فيه تؤدى إلى تطور صناعى لم يسبق له مثيل. بينما نجد أن الاستشراق الأدبى والفنى قد ترعرع ونما نتيجة للأحداث المتعلقة بالشرق الإسلامى وخصوصًا **«المسألة الشرقية»** التى كانت من المشكلات العظمى فى السياسة الأوروبية فى القرن التاسع عشر. فى هذا القرن كان الشرق الإسلامى من وجهة النظر الأوروبية لا يزال عدوًا، ولكنه عدو محكوم عليه بالهزيمة نظرًا لأن البلاد الشرقية كانت أشبه بالشهود المنهارين لماضٍ عريق. ففى الوقت الذى كان الرومانتيكيون يستمتعون فيه بترف امتداحهم للشرق، كان السياسيون ورجال التجارة والأعمال يفعلون كل ما فى وسعهم للإسراع بانهيار بلدان الشرق. فلم تكن إمكانية نهوضهم ولحاقهم بالعصر الحديث تثير أية حماسة، بل إن الغربيين كانوا يفتقدون خلال عملية تحديثهم لأهل المشرق نكهة الغرابة التى كانت مبعث سحرهم. وعلى حين أن المسلم كان فى العصور الوسطى بمثابة العدو الشرس، لكنه كان مع ذلك من مستوى الرجل الغربى نفسه، فإنه قد أصبح الآن مخلوقًا مختلفًا سجين خصوصيته.

ومع ذلك كانت هناك صورة أخرى تفتقر إلى التنظيم تنظر إلى بلاد الشرق الإسلامى باعتبارها مجتمعات متطورة قادرة على التقدم، إذا ما توفرت لها الشروط الملائمة، هذه الصورة كانت توجد لدى رجال السياسة والفنيين والاقتصاديين حيثما كانت الظروف ملائمة. لكن هذه الصورة الإيجابية كانت تزداد شحوبًا فى ظل الوضع المهين الذى وجد العالم الإسلامى نفسه فيه، الأمر الذى شجع المبشرين المسيحيين وفتح لهم طرقًا جديدة. ووفقًا للأفكار العامة للعلْم العصرى فى ذلك الحين عَزَا المبشرون نجاحات الأمم الأوروبية إلى الدين المسيحى، مثلما أرجعوا إخفاق العالم الإسلامى إلى ديانة الإسلام، فتم تصوير المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم..

وقُرنَ الإسلام بالركود الثقافى والتخلف. وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون.

إذًا لقد تطورت «حركة الاستشراق» التى تمتد جذورها إلى نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وخلال النصف الأول من القرن الثامن عشر سادت الحركة الاستشراقية درجة من الاعتدال تجاه الإسلام والشرق بصفة عامة، ثم نمت وازدهرت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث ارتبطت خلال مرحلة النمو هذه بهاتين الجهتين:

الجهة الأولى: هى المؤسسات الدينية المسيحية على اختلاف طوائفها ومذاهبها، حيث إن الاستشراق فى جزء منه وسيلة لخدمة جهود التبشير المسيحى عن طريق تزويد القائمين بها بمعلومات موثقة عن المسلمين وتاريخهم وحضارتهم وكافة أوضاعهم السياسية والاقتصادية والثقافية، وعن مدى فهم هؤلاء المسلمين لعقيدتهم ومدى انعكاسها فى سلوكياتهم وتشريعاتهم، وعن تصورهم لعلاقتهم بأوروبا المسيحية وموقفهم منها؛ لهذا لم يكن من المستغرب وجود عدد غير قليل بين المستشرقين من الرهبان ورجال الكنيسة.

أما الجهة الثانية: التى ارتبط بها الاستشراق فى أوروبا، فقد كانت الدوائر الحكومية المسئولة عن إدارة شئون المستعمرات فى العالمين العربى والإسلامى. فإذا كانت الجهة الأولى تسعى إلى التبشير بالمسيحية ومواجهة تيار الدخول فى الإسلام والعمل على منع التأثر به، فإن الجهة الثانية كان هدفها إحكام السيطرة وبسط النفوذ على عالم العرب والمسلمين من خلال إيجاد تيار يسعى إلى تقليد الغرب وأنماط حياته والارتباط به.

المنهج الاستشراقى وكيفية التعامل معه

يتصف المنهج الاستشراقى فى تناوله لتراث الإسلام «بعدد من الملامح»[١١٦] توضح مدى سيطرة أساليب الإقصاء والنفى والانتقائية والاختلاق.. ورغم تعدد مناهج المستشرقين، فإن هناك عددًا من الملامح يمكن رصدها فيما يلى:

أولاً: المبالغة والشك والافتراض، فقد مثلت هذه القاعدة قاسمًا مشتركًا فى كتابات المستشرقين، فنجدهم يمضون مع الشك إلى أقصى مداه، ويطرحون افتراضات لا

رصيد لها من الواقع التاريخى، وينفون العديد من الروايات المتواترة فى الوقت الذى يتشبثون فيه بكل ما هو شاذ، ونموذج ذلك التوجه هو المستشرق «مرجليوث» الذى قدم عناصر الشك فى الرواية والرواة، ثم تقدم خطوة للإجهاز على الشعر الجاهلى ووصفه بالمنحول، تمهيداً للتشكيك فى القرآن الكريم والسّنة النبوية المطهرة.

ثانيًا: إسقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة على الوقائع التاريخية، حيث تمت دراسة الإسلام كعقيدة أو سيرة وتاريخ بمفاهيم غربية معاصرة، ومقارنةً بالمعطيات التاريخية الغربية. . فالمستشرق إما أن يكون علمانيًا ماديًا لا يؤمن بالغيب، وإما أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا لا يؤمن بصدق الرسالة التى أعقبت النصرانية، وفيما بين الرواسب الدينية والنزعة العلمانية تمت دراسة الإسلام من خلال رؤية وضعية مرتكزة على المنظور والمرئى، ترفض كل ما هو روحى أو غيبى على أساس أنه سقوط فى مظنة الخيال والخرافة واللاعلمية. ونموذج هؤلاء هو المستشرق «بروكلمان».

ثالثًا: إخضاع التراث الإسلامى للتفسير المادى للتاريخ، حيث تم إخضاع التراث الإسلامى ـ سواء فى نظمه السياسية والاقتصادية أو فى بُعْده التاريخى. . ووصل الأمر حتى إلى إخضاع القرآن الكريم والسّنة الشريفة للتفسير المادى للتاريخ ولمقولاته الصارمة ـ فقد تمت دراسة التراث الإسلامى بمقولات ماركسية ومفاهيم تعكس النظرة المادية للتاريخ، ويمثل هذا الاتجاه المستشرق مكسيم رودنسون. هذا بالإضافة إلى الدراسات الاستشراقية الروسية التى ضخمت العامل الاقتصادى فى التاريخ، باعتباره القاعدة الأساسية لأى تحول حتى ولو كان دينيًا أو أخلاقيًا صرفًا.

رابعًا: دراسة الإسلام كخبرة تاريخية بشرية منقطعة ومبتورة عن المصدر الإلهى فقام المستشرقون بإسقاط «البُعْد الغيبى عن الإسلام» وتعاملوا مع العقيدة الإسلامية كدين وتراث من خلق البشر دون وجود مصدر إلهى مستقل عن العقل البشرى، فقاموا باستبعاد الوحى الإلهى كمصدر لعقيدة الإسلام وشريعته، كما أوجد هؤلاء المستشرقون إسلامًا وفق منهجهم من خلال تتبع وقائع تاريخ المسلمين ونظمهم التى لا تمثل فى غالبيتها تاريخًا للنظم الإسلامية الحقة، وإنما تاريخًا للممارسة الفعلية للسلطة السياسية على مقتضى مصالح السلاطين وإن انحرفت عن القيم الإسلامية. . وبهذا

أوجدوا فى تعاملهم مع التراث الإسلامى أشكالاً مختلفة من الإسلام تختلف باختلاف الشعوب التى تعتنقه، فمن وجهة نظرهم هناك إسلام الهند وإسلام تركيا، وإسلام أفريقيا، وإسلام العرب، وكل إسلام يختلف عندهم عن الآخر باختلاف الجنس وطريقة فهم الشريعة الإسلامية، ويمثل هذا النموذج المستشرق «توماس أرنولد».

خامسًا: الانتقائية والاختلاق فى تصنيف العلوم الإسلامية، فلم يدرس المستشرقون التراث الإسلامى بمداخله وتصنيفه للعلوم، ولا حتى بالتصنيف الأوروبى للعلوم، وإنما تمت دراسته بتصنيف ثالث من ابتكار المستشرقين بحيث أضيفت الأهمية على موضوعات لم يكن لها وزن أو قيمة فى التراث الإسلامى، وتم تضخيم موضوعات لم تكن أبدًا فى نطاق الاهتمام والصدارة، ويمثل هؤلاء المستشرق «هاملتون جب».

. . . وتُمثِّل هذه الملامح السمة الغالبة على المنهج الاستشراقى فى تناوله لتراث الإسلام، باستثناء القليل من المستشرقين الذين اتسموا بالنزاهة والتدقيق العلمى والاعتدال، من هؤلاء ليوبولدفايس (محمد أسد) وجيل كيبيل وآنا ماريا شمل وزيجريد هونكه - فى محاولاتهم لإزالة عقدة الاستعلاء تجاه العالمين العربى والإسلامى لدى الكثير من الأوروبيين وتصحيح صورة الإسلام فى الغرب قدر استطاعتهم، لكن أعمال هذه الفئة من المستشرقين العظام تظل فى حاجة إلى الدعم فى مواجهة التصورات المشوهة عن الإسلام والمسلمين المتجذرة فى وعى الغرب ومداركه، فلا زال هناك ما لا حصر له من الأبحاث والدراسات التى ليس لها من هدف سوى ازدراء الإسلام والمسلمين. فالاستشراق كما يرى المفكر الفلسطينى[١١٧] **«إدوارد سعيد»[١١٦] ليس إلا اختراعًا أوروبيًا لخدمة وحماية مصالح أوروبا وتطلعاتها لإحكام سيطرتها على الشرق، ومارس أكثر المستشرقين أبحاثهم لخدمة المصالح الاستعمارية وتطويع العالم الإسلامى للغرب.**

. . . وبسبب ضعف العالم الإسلامى وتراجُع مكانته الحضارية. . انتقل الاستشراق إلى مرحلة جديدة ذات طبيعة هجومية تمثلت فى محاولات الغزو المضاد للمجتمعات الإسلامية، وفى مرحلته الأخيرة ارتبط الاستشراق بالاستعمار الذى

يهدف إلى السيطرة ونهب الموارد وفرض التبعية السياسية والاقتصادية . . أمَّا «التبعية الثقافية» فقد تكفلت بها الحركة الإستشراقية .

الاستشراق البديل

شهدت الحركة الاستشراقية تطورات مؤثرة باتت واضحة خلال النصف الثانى من القرن العشرين . . فالاستشراق الذى يخدم مصالح دينية تبشيرية ، أو مصالح سياسية استعمارية ما لبث أن طرأت عليه تغيرات من خلال التطورات المتلاحقة التى يشهدها العالم فى ظل الحديث عن العولمة والانهيار المتواصل للحواجز بين الشعوب نتيجة للثورة العلمية والتكنولوچية لا سيما فى مجال الاتصالات ، والنمو الهائل الذى شهدته حركة التجارة الدولية عَبْر حدود القارات فى ظل هيمنة نظام السوق الغربى ، والانتقال الواسع للسلع ورءوس الأموال والمعلومات والأفكار عَبْر «الشركات المتعددة الجنسيات ـ Transnational Corporations» التى تتخذ العالم كله مسرحًا لعملياتها بدءًا من الحصول على المواد الأولية وتوزيع عمليات الإنتاج ـ وصولاً إلى عمليات التسويق الواسع للمنتجات ونشر ثقافة الاستهلاك .

. . . بالإضافة إلى ذلك ـ فقد انتقلت الجهود العلمية التى كان يقوم بها أفراد من «المستشرقين العلماء» إلى مؤسسات بحثية متخصصة لها قدراتها المالية الكبيرة إلى جانب خبراتها العملية المتنوعة لهذه المؤسسات أو مراكز الأبحاث التى يطلق عليها «مستودعات الأفكار(*) Think Tanks» مثل «مؤسسة راند ـ Rand Corporation»

(*) يعود مصطلح «مستودعات الأفكار ـ Think Tanks» إلى الحرب العالمية الثانية ـ حيث كان يشير فى الأصل إلى مكان آمن يستطيع فيه علماء الدفاع والمخططون العسكريون أن يلتقوا لمناقشة الشئون الاستراتيچية . . . . ومستودعات الأفكار مفهوم يشير إلى المؤسسات التى نشأت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى مؤسسات ذات تمويل خاص موجهة إلى إنتاج ونشر معرفة صُممت لتزويد السياسة العامة بالمعارف والتأثير عليها ، وتصب أساسًا فى خدمة السياسة الخارجية وأقيمت بعض هذه المؤسسات والمنظمات منذ فترات طويلة ـ فمثلاً ـ أنشئت «منحة كارينجى للسلام الدولى فى عام ١٩١٠ لتشجيع التعاون الدولى ـ Carnegie Endow ment for International Peace» . . وأقيمت «مؤسسة بروكينجز ـ Brookings Inistitution» الليبرالية فى عام ١٩٢٧ بدعم مالى من كارنيجى وروكفلر . . . بينما أنشئ «معهد المشروع الأمريكى ـ American Enter Prise Inistitution» ذو الاتجاه المحافظ =

وغيرها من المؤسسات العملاقة التى أصبح لها دورها داخل النظام السياسى من حيث المشاركة فى رسم السياسات واتخاذ القرار السياسى.

. . لقد اختفت الحركات الاستشراقية، وتمت تصفية الجمعيات والمؤسسات الأوروبية والدولية التى كانت تدعم تلك الحركات؛ لأن الاستعمار الأوروبى انتهى بدوره كمرحلة تاريخية، ولكن علينا أن نتذكر أن «الغزو الفكرى» له وسائله العديدة، كما يقول العلامة الدكتور حامد ربيع[١١٨] «. . فالاستشراق لم يكن سوى نقل مفاهيم الحضارة الكاثوليكية، حيث فكرة التبشير هى المحور الحقيقى للتعامل. . فالغزو الاستعمارى اليوم ينبع من منطلق الدولة العملاقة وليس من منطلق الدولة القومية. . وهو يعبر عن عصر المجتمع الجماهيرى، حيث الكم هو المتحكم فى تصور ومدركات القوى الغازية، ومن ثم فقد تخلت مفاهيم الحركات الاستشراقية لتحل محلها فكرة الأبحاث الميدانية التى غمرت المجتمعات العربية وأصبحت هى موضة العصر. .» وبالتالى أصبح لهذه الأبحاث أهمية خطيرة بصدد تخطيط السياسات الكبرى فى تعاملها مع دول وشعوب المنطقة العربية والإسلامية. وهذه بالطبع مهمة «مستودعات الأفكار» من المؤسسات ومراكز الأبحاث المتنوعة.

. . . ولكى نتمكن من فهم ما وراء هذه التحولات المؤسسية والفكرية فى التعامل الغربى مع العالم الإسلامى. . علينا أن نضع هذه التحولات فى سياقها التاريخى فى ظل صعود «الولايات المتحدة الأمريكية» وتقلّدها مكانة «الصدارة العالمية» مع انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية اعتباراً من النصف الثانى من القرن الماضى. . وبزوغ حركات الاستقلال وما أدت إليه من تغيرات اجتماعية وتطورات سياسية، لا سيما فى منطقة الشرق الأوسط. هذا التحول يؤكده المؤرخ الأمريكى «زكارى لوكمان ـ Zachary Lockman» بقوله: «. . فكما كان تطور الاستشراق الأكاديمى فى القرن

= فى ١٩٤٣. . وبعد الحرب العالمية الثانية دخل المجال مقاولون كبار مثل «شركة راند ـ Rand Corporation» الضخمة لإنتاج أو تمويل أبحاث للجيش والمخابرات ـ وتزايد إنشاء هذه المؤسسات ومراكز الأبحاث فى الولايات المتحدة منذ السبعينيات من القرن الماضى من بينها «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى ـ Washington Fnstirute for Near East Policy (WINEP)» حيث يصف المعهد رسالته بأنه مؤسسة تعليمية عامة مكرسة للبحث والجدل العلميين بشأن مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط كمستودع أفكار قيادى موال لإسرائيل فى واشنطن.

التاسع عشر مرتبطًا بتوسع القوى الأوروبية فى الأراضى الإسلامية . . كان تطور دراسات الشرق الأوسط ـ كحقل أكاديمى ـ مرتبطًا بشدة بظهور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عالمية عظمى ـ وتورطها بشكل أعمق فى منطقة الشرق الأوسط . . » .

وهكذا ، لم يَعُد «الاستشراق» مجرد «حركة علمية» من حركات التعارف الثقافى يقوم به أفراد متفرقون على اختلاف مشاربهم وأهوائهم . . وإنما صَارَ جُزءًا من عمل «مؤسسات ضخمة» متخصصة فى البحث والتحليل . . لديها ما لديها من الموارد والإمكانات ـ ونفوذ يسمح لها بالتأثير المتزايد ، ليس فقط على مجرى العلاقات بين الغرب «الأوروبى ـ الأمريكى» . . والشرق «العربى ـ الإسلامى» . . . وإنما على امتداد العالم بأسْره .

* * *

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفاهم والحوار

. . . كانت نظرة العالم المسيحى الغربى إلى المسلمين تنحصر فى كونهم مجرد قبائل بدائية لا تعرف غير السلب والنهب . . وأنهم باجتياحهم وانتزاعهم لمناطق واسعة فى مصر والشام كانت فى قبضة المسيحيين . . باتوا يشكلون تهديداً للعالم المسيحى برمته . . خصوصًا بعد استيلاء المسلمين على إسپانيا وشواطىء إيطاليا وجنوب فرنسا . . فتكونت صورة عدائية مشوهة للإسلام وأتباعه المسلمين .

. . . وعلى مدى القرن الحادى عشر الميلادى . . وفى ظل حدوث الانشقاقات فى العالم الإسلامى تمكن المسيحيون الغربيون ـ فى إطار ما يسمى بحرب «الاسترداد ـ Re-conquista» من استعادة سيطرتهم على «صقلية» عام ١٠٦٠م . . وطليطلة عام ١٠٨٥م . . ثم دخولهم القدس عام ١٠٩٩م . . هذا الأمر أدى إلى زيادة الاحتكاك المباشر بين المسيحيين والمسلمين . . وأخذت صورة الإسلام تتشكل وتصبح أكثر وضوحًا ودقة بالتدريج . . لكن هذه الصورة ـ وللأسف ـ تأثرت ولعدة قرون قادمة بتشوهات عديدة بسبب الصدام العسكرى والصراع الأيديولوچى بين العالمين المسيحى والإسلامى .

وفى واقع الأمر لم يكُن لدى أوروپا المسيحية تصور واحد عن العالم الإسلامى الذى كانت فى صدام متواصل معه ، بل كان لديها العديد من التصورات لأنه حتى ذلك الحين كان العلماء الأوروپيون قد عالجوا بصورة رئيسة المفاهيم الأوروپية للدين الإسلامى انطلاقًا من وجهة نظر سياسية أيديولوچية عدائية بعيدة عن الحياد بل وتتعمد التشويه ، لكن الإسلام بطبيعة الحال كان يمثل على مستوى آخر حضارة مختلفة وإقليمًا غريبًا على الصعيد الاقتصادى ، هذا فى الوقت الذى أوجدت فيه الحروب الصليبية صورة مسلية تتوافق مع أيديولوچية الخصوم ، حيث كان رجل الشارع يرغب فى صورة تبرز التصور الكريه للإسلام ، فأخذ الكتاب اللاتينيين ما بين عام (١١٠٠م ـ

١١٤٠م) على عاتقهم إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامى بإبراز السمات الغريبة التى أدهشت الصليبيين فى تعاملهم مع المسلمين . . وهكذا ودون أى اعتبار لنزاهة أو دقة أخذوا يوجهون اتهاماتهم البذيئة لنبى الإسلام، وكما هو الحال دائمًا فإن الرؤية التى ترسمها الأعمال التى تخاطب عامة الناس لا بد من أن تكون قد أسهمت فى تكوين تلك الصورة التى حفظتها الأجيال اللاحقة، أكثر من الرؤية التى تؤكدها الأعمال ذات الصبغة الجدية والعلمية بطبيعة الحال. ومن المفارقات على سبيل المثال: وجهت الاتهامات للمسلمين بعبادة الأوثان، رغم أنهم هم الذين اتهموا المسيحيين بتعدد الآلهة والإشراك بالله.

ثم طرأ على الصورة الهجومية الوحشية ضد الإسلام تغير تدريجى نتيجة لتراكم المعلومات الصحيحة عن الإسلام وأصوله، وكذلك عن الشعوب الإسلامية بسبب الاتصالات المتزايدة بين الجانبين على الصعيد التجارى، ونشأ عن ذلك تقدير عميق فى بعض الأحيان للمذاهب العلمية والفلسفية التى صدرت عن البلاد الإسلامية.

وكانت الظاهرة التى لعبت الدور الأكبر فى تحديد طبيعة «النظرة الأوروبية» إلى الشرق وخصوصًا بعد منتصف القرن التاسع عشر هى «الإمبريالية»، فقد كان التفوق الأوروبى طاغيًا من كافة النواحى العسكرية والفنية والاقتصادية والسياسية والثقافية ذلك فى الوقت الذى كان فيه الشرق غارقًا فى التراجع والأفول. وأصبحت القوتان الرئيستان فى العالم الإسلامى وهما الإمبراطورية العثمانية وإيران محميتين أوروبيتين فى حقيقة الأمر. . بينما كان نطاق الاحتلال المباشر ينتشر فى أواسط آسيا لمصلحة الروس. . أما مغرب ومشرق العالم العربى فقد خضع للسيطرة المباشرة من جانب البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين.

وسائل الغرب لاستهداف الإسلام

يجد العالم الإسلامى نفسه اليوم فى مواجهة حملة جديدة من حملات التشويه من جانب الغرب. . تعتمد بالإضافة إلى ما قام به خلال القرنين الماضيين من نشر أساليب العيش وعادات وثقافة الغربيين بين المسلمين لا سيما فى أوساط الشباب المولع بالجديد من خلال غرس الاعتقاد بالتفوق الأبدى للحضارة الغربية ونشوء أجيال من المتغربين،

إلا أن هذه المحاولات لم تؤت ثمارها المرجوة فى ظل تصاعد تيار الإسلام الأصولى المناهض للتغريب والداعى إلى العودة للأصول ـ فلجأ الغرب إلى هذه الحملة الجديدة القديمة فى حقيقة الأمر باستدعاء التاريخ، فتم الربط بين الإسلام وبين الإرهاب، وإعادة الحياة لمخطط الإساءة إلى صورة نبى الإسلام الكريم، واتهام الإسلام بأنه دين العنف لاعتماده من البداية على الانتشار بالسيف، وفى ظل الضغط المتواصل من جانب الغرب باعتباره الطرف المهيمن، لا يبقى أمام الشعوب الإسلامية من سبيل إلا أن تتخلى عن الدين وما يمثله من قيم للممانعة إلى طريق السقوط المرسوم وتصدق عليها حينئذ مقولة العلامة «ابن خلدون»[١٢٠] حول علاقة الغالب والمغلوب حيث يقول:

«ترى المغلوب يتشبه دائمًا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه وشتى عوائده وسائر أحواله، اعتقاداً منه فى كماله» أو كما يقول فيلسوف الشرق وموقظه «جمال الدين الأفغانى»[١٢١]: «إن المقلدين للتمدن الغربى إنما يشوهون وجه الأمة ويضيعون ثرواتها، ويحطون من شأنها، إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم».

فالهدف الأول والأخير من هذه الحملات هو الإسلام ولا شىء سواه، فلو تتبعنا اهتمام العالم الغربى بالحضارة الإسلامية لاستطعنا أن نميز إجمالاً ودون تفصيل بين خمسة مراحل متتابعة:

المرحلة الأولى: حيث كان الاهتمام بالحضارة الإسلامية مقدمة ووسيلة للغزو الكاثوليكى الدينى للمجتمع الإسلامى.

المرحلة الثانية: توصف هذه المرحلة بأنها «حركة استشراقية» هى فى حقيقتها تعبير عن محاولة الدفاع عن الذات فى مواجهة الغزو العثمانى لأوروبا.

المرحلة الثالثة: يصير فيها الاستشراق أداة من أدوات الغزو الإمبريالى.

المرحلة الرابعة: يتحول الاستشراق أيضًا إلى أداة من أدوات الغزو الكاثوليكى للمجتمع غير المسلم «التبشير».

المرحلة الخامسة: وهى مرحلة الغزو الصهيونى التى تتوج ما سبقها من مراحل،

حيث ترتبط بمحاولات تشويه الطابع القومى ومحاولة لإلغاء الذاتية للتراث الإسلامى باعتبار اليهود شركاء فى إنتاجه.

«فلو عدنا إلى مرحلة العصور الوسطى وخصوصًا فى نهايتها، وإلى حد ما مع مشارف العصور الحديثة فى أواخر القرن الخامس عشر لوجدنا مفهومًا معينًا يسيطر على رجال الدين والكهنوت فى الحضارة الكاثوليكية. فالفكرة السائدة هى أن المجتمع الإسلامى يجب أن يقاد إلى الكاثوليكية[١٢٢] وإلى المسيح من خلال التعاليم التى وردت فى القرآن. فهدف الحركات الفكرية والتبشير المسيحى خلال تلك الفترة هو إقناع العالم الإسلامى أن النبى محمداً كان كاثوليكيًا، وأن الإسلام من حيث طبيعته ليس إلا حلقة من حلقات الكاثوليكية والإلحاد».

أعقب ذلك أن حركة الاستشراق التى ارتبطت بحضارة عصر النهضة تبلورت بصفة خاصة خلال الفترة التى كانت الجيوش العثمانية تطرق فيها أبواب فيينا، حيث كان ينظر إلى الخطر العثمانى على مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر وإلى حد ما فى القرن الثامن عشر على أنه أكثر تهديداً من أى خطر آخر لبقاء الحضارة الكاثوليكية.. هذه النظرة لم تتغير حتى فى نفس اللحظة التى كانت قد بدأت فيها التحولات الصناعية فى أوروبا وما تفرضه من اهتمامات بالسوق الشرقى، وما يقدمه العالم العثمانى من وسائل للإغراء بهذا الخصوص. وهكذا تجمعت فى الحضارة الغربية العداوة من جانب والتعامل السلمى من جانب آخر لتبرير حركة الاستشراق وما تمثله من محاولة للدفاع عن الذات فى مواجهة الإمبراطورية العثمانية.

خلال القرن التاسع عشر، تحول الاستشراق ليصير أداة من أدوات الغزو الإمبريالى. هذا القرن هو قرن الاستعمار الفرنسى والبريطانى فى العالم الإسلامى. وهو القرن الذى عاصر حملة نابليون على مصر، والاحتلال الفرنسى لمختلف أجزاء شمال أفريقيا، كما شهد الغزو البريطانى للمنطقة. وبالتالى، أضحى الاستشراق أداة من أدوات الغزو الإمبريالى ووسيلة من وسائل تنظيم عملية الإدارة والتعامل مع تلك المناطق. **ويشير الدكتور حامد ربيع**[١٢٣]: «إلى اعتراف المؤرخين المحايدين بأن علماء الاستشراق طيلة القرن التاسع عشر كانوا يمثلون إحدى الأدوات الثابتة لتنظيم عملية الاختراق الحضارى للمنطقة العربية، وأضحى الاستشراق أداة من أدوات فهم العالم

الإسلامى لاكتشاف نواحى الضعف والقوة بقصد دفع فيضان الحركة الإسلامية فى المجتمعات البدائية واستقطاب القوى غير المسلمة أو القابلة لأن تكون مسلمة فى أفريقيا وآسيا . . ثم تأتى الحركة الصهيونية لتكمل ما بدأته حركة الاستشراق، ومع الدعاوى الصهيونية بدأ الحديث بثبات عن الأصول اليهودية للحضارة الإسلامية، وعن فضل اليهود على الحضارة العربية وعدم أصالة التراث الإسلامى مع بداية الربع الثانى من القرن العشرين وما ارتبط بهذه الفترة من أحداث يأتى فى المقدمة، منها اختفاء الإمبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها باسم حق الغزو وحدوث انهيار للوجود السياسى العربى والإسلامى. **حقيقةً كانت الإمبراطورية العثمانية صورة من صور الاحتلال والعبودية التى عانى منها المجتمع العربى الكثير، ولكنها فى النطاق الدولى كانت تمثل الاستمرارية الإسلامية التى استطاعت أن تفرض وجودها الذاتى فى النطاق العالمى. فمنذ أن اختفت الإمبراطورية العثمانية ودون أن ترثها قوة محلية، حيث كان الوارث الوحيد هو القوى الاستعمارية الأوروبية، فإن المنطقة العربية لم يعد لها أى وزن فى نطاق التعامل الدولى. .»**.

. . . ويؤكد الدكتور حامد ربيع «أنه مع بداية النصف الثانى من القرن العشرين بدأت بشكل واضح حملة تشويه عجيبة تهدف إلى إبراز العربى والمسلم على أنه صورة من صور الوحشية والأنانية والتخلف التى تجمعت فيها أسوأ الصفات، وزادت حدة هذه الصورة مع التطور المستمر فى وسائل الإعلام. وللأسف جاءت الأخطاء العربية وتراكمها على مدى العقود الماضية لتضاعف من ضخامة هذه الصورة ولتدعم من تعميقها فى الوعى الغربى وبالطبع استغلت الحركة الصهيونية هذه الأخطاء وبطريقة علمية ومنظمة وبدهاء لا موضع لمناقشة قوة تأثيره، الأمر الذى أدى من جديد إلى الاجتراء على الدين الإسلامى ونبيه الكريم. . .».

فى هذا السياق تأتى حملة التشويه التى شنتها الصحف الأوروبية على شخصية الرسول الكريم لتأتى بعدها محاضرة بابا الفاتيكان بنيدكت السادس عشر التى ألقاها يوم الثلاثاء الثانى عشر من سبتمبر ٢٠٠٦م فى جامعة ريجنزبورج بولاية بافاريا الألمانية التى دار مضمونها حول الخلاف التاريخى والفلسفى بين الإسلام والمسيحية فى العلاقة التى يقيمها كلّ منهما بين الإيمان والعقل. ومن خلال منظور استعلائى عنصرى

اقتبس البابا عن الإمبراطور البيزنطى «مانويل الثانى» من القرن الرابع عشر بشأن نبى الإسلام ﷺ الذى قال فى حوار له مع مسلم من فارس: «أرنى ما الجديد الذى قدمه محمد. ستجد فقط أشياء شريرة وغير إنسانية مثل نشره الإيمان الذى كان يبشر به بحد السيف» وذهب البابا فى محاضرته إلى حد نفى العلم والعقلانية عن الإيمان الشرقى برمته مسيحيًا شرقيًا كان أم إسلامًا. حيث يرى البابا أن المسيحية بالرغم من أصولها وتطورها البارز فى المشرق إلا أنها اتخذت سيرها ومصيرها وطبيعتها فى أوروبا. هذا الاتهام القديم على لسان المستشرقين المغرضين هو نفس الاتهام الذى ساقه البابا ضد الإسلام على الرغم من أنه أكذوبة تخطاها النقد التاريخى وزيفتها أبحاث مقارنات الأديان؛ لأن دراسة الإسلام فى تشريعاته وتطبيقاته الحضارية تثبت فساد وكذب هذه المقولة لأن العقل فى الإسلام أساس الشرع، ولا يتم التشريع إلا به، **وكما يقول علماء وفقهاء الإسلام «إن العقل هو شرع باطن، وإن الشرع عقل ظاهر وهما لا ينفصلان»، بل ويكمل كلٌ منهما الآخر...**

... يوضح الدكتور رفيق حبيب[١٢٤] فى كتابه «إحياء التقاليد العربية»: «إن كل عقل لا يبدأ إلا بالنقل، وكل نقل لا يكون إلا بالعقل، تلك هى الحقيقة الأولى فى النشاط الثقافى والعلمى فى التاريخ الإنسانى، فلم نسمع عن فكر أو علم يولد فى الفراغ، ولم نسمع عن فكرة بلا تاريخ، أو بداية بلا سوابق. فتاريخ الأفكار يؤكد على أن كل فكرة تستمد جذورها من الأفكار السابقة عليها. وبهذا يصبح التجديد هو ميلاد لفكرة جديدة لها سوابقها ولها إطار تاريخى، ولكنها تتجاوز ذلك الإطار وتضيف عناصر جديدة لم تكن واضحة أو لم تكن موجودة فى الأفكار السابقة عليها». **فالعلاقة بين العقل والإيمان فى الإسلام لم تشكل أى علامة استفهام أو نقطة إحراج للذهن الإنسانى سواء على مستوى العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق.**

... وإذا كانت افتراءات وإساءات الإعلام الغربى يعتبرونها من باب حرية التعبير، فما هو مبرر ما يقدمه ممثلو الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسهم بابا الفاتيكان من اتهامات لا يبررها إلا سوء الفهم وانعدام المعرفة بحقائق الإسلام. فالتناقض الذى يمثل السمة الغالبة فى موقف الغرب المسيحى من الإسلام إنما يعود بالدرجة الأولى إلى الخلط المتعمد بين الإسلام كدين وبين الواقع الحضارى المتردى للمسلمين. هذا

التناقض يفسره تراجع البابا عن تصريحاته ولكن بصورة عملية قدمها خلال زيارته لتركيا؛ فقد ذكرت وكالة «أسوشتيدبرس» العالمية للأنباء فى بثها الصادر فى الثانى من ديسمبر ٢٠٠٦م ـ وهو اليوم الذى اختتم فيه بابا الفاتيكان زيارته ـ قائلة: «إن خطة قيام البابا بالصلاة مع رجال الدين المسلمين بالمسجد الأزرق فى إسطنبول نجحت فى كسب ود المسلمين الأتراك بوصفها لفتة تصالحية بعد التوتر الذى ساد العلاقات بين العالم الإسلامى والبابا بسبب تصريحاته المسيئة للإسلام فى سبتمبر من العام الماضى»، وأشارت الوكالة إلى ما ذكرته صحيفة «صباح» التركية نقلاً عن مفتى إسطنبول الشيخ مصطفى تشاجرجى قوله: «إن هذه الصلاة أكثر قيمة من الاعتذار. إنها رسالة إيجابية إلى المسلمين»... ولن يتخلص الغرب من هذا التناقض ما لم يصبح المسلمون نداً له فى مجالات العلوم والأفكار.

مأزق التبشير

إذا كان «التبشير» فى معناه الواسع يمثل حركة دينية سياسية استعمارية بدأت بالظهور فى أعقاب فشل الحروب الصليبية فى نشر الديانة المسيحية بين الأمم المختلفة، لا سيما الأمة الإسلامية بهدف إحكام السيطرة عليها وضمان تبعيتها ومن ثم اتقاء خطرها كان لابد من العمل المتواصل بهدف الحد من قدرتها على النهوض من جديد. لقد نشأت حركة التبشير على يد طائفة من الرهبان من بين رجال الكنيسة الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل المسيحية عن طريق الدخول فى قلب العالم الإسلامى لتحويل من يستطيعون تحويله عن دينه، بحيث ينتهى الأمر فى منتهاه إلى العقيدة المسيحية، هذه الطائفة التى عرفت فيما بعد باسم «رجال التبشير». ويكاد يجمع المبشرون فيما بينهم على أن القوة التى تخيف الغرب المسيحى هى قوة الإسلام والمسلمين. لهذا دأبت حركة التبشير دون كلل وبكل ما لديها من إمكانات على تمزيق الأمة الإسلامية من خلال إثارة النزعات القبلية والحركات الانفصالية وإثارة النعرات الطائفية والمذهبية ناهيك عن صراعات الزعامة الوهمية، الأمر الذى يؤدى إلى السقوط فى أتون الحروب الأهلية المدمرة التى تعوق لَمَّ شَمْل المسلمين واتفاقهم على كلمة سواء، وتذهب أدراج الرياح الآمال المعقودة على توحدهم من جديد. هذا ما تهدف إليه حركة التبشير، وقد نجحت فى تحقيق بعض أهدافها، ولكن على الصعيد السياسى وليس الدينى إلى حد بعيد.

. . . من هنا يمكن فهم الحوار الإسلامى/ المسيحى على أنه تاريخ للعلاقات المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين على مدى أربعة عشر قرنًا من وجود هاتين الديانتين، بمعنى تاريخ علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وأيضًا كتاريخ للتصورات والمعارف المتبادلة عن بعضهم البعض. . لكننا نجد أنه يتشكل فى الوقت الراهن مفهوم آخر للحوار باعتباره محطة تاريخية واعية لوضع شديد الأهمية والحساسية يتطلب دراسة مفاهيمية ونظرية متكاملة. ومعالجة مؤسساتية عملية مؤثرة وفاعلة. وإذا كان تاريخ الحوار بين الجانبين لا يمتد لأكثر من بضعة عقود من الزمن، فإن تقويم هذه المظاهر الجديدة من زاوية واحدة أمر غير ممكن الحدوث.

. . . لقد لعبت العلاقات الإسلامية/ المسيحية دورًا خاصًا فى تاريخ التفاعل المتبادل بين الشرق والغرب، فالمسيحيون والمسلمون على حد سواء كانوا يتصفون دائمًا بإدراكهم للرابطة الروحية المشتركة ـ حتى وإن كانت محدودة الأبعاد ـ التى ترجع إلى التقليد الإبراهيمى التوحيدى. وكانوا يدركون فى الوقت نفسه الاختلاف الجوهرى بالنسبة لخبراتهم فى المجال الثقافى/ الأيديولوچى خصوصًا فى بعده الدينى.

. . . وبدءًا من انتشار الإسلام ونشوء الخلافة العربية ظهر التضاد الدينى/ الأيديولوچى بين الغرب والمشرق الإسلامى، لكن عملية التواصل الثقافى بين هذين العالمين لم تنقطع كليًا، ففى المرحلة الإسلامية الأولى لعب المسيحيون السوريون دورًا متوسطًا بين الطرفين، وكما ذكرنا آنفًا فقد التقى الإسلام فى سوريا مع الفكر المسيحى الشرقى فى القرن الثامن الميلادى حيث تمت المزاوجة الثقافية بين الإسلام الغالب والمسيحية باعتبارها الطرف المغلوب. . وفى القرنين التاسع والعاشر للميلاد قدمت مدارس الترجمة المسيحية من «بغداد» إلى «حَرَّان» للمسلمين تراث الفلسفة القديمة والمعارف العلمية لذلك العصر وما سبقه من عصور. وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين تبدلت الأدوار، حيث أصبح علماء المسلمين وفلاسفتهم خلالهما أساتذة ومعلمين بالنسبة لمسيحيى أوروبا، فكان لهم نفوذهم القوى وهيبتهم العظيمة وتأثيرهم الذى لا يضاهى. وأدت الترجمات من العربية إلى اللاتينية إلى توسيع آفاق المعرفة الأوروبية للفكر العلمى الفلسفى القديم. أما عصر النهضة والعصر الحديث فقد

طورا بشكل حاد الاختلافات الثقافية بين أوروبا والشرق الإسلامى، ولكن بدءاً من القرن التاسع عشر لوحظ التقارب بينهما مجددًا، والحقيقة أنه من المشكوك فيه أن يتم فهم ديناميات العلاقات المعاصرة بجوانبها وميادينها المتعددة فى تناقضها وتشابكها بين أوروبا والمشرق العربى الإسلامى، دون الإحاطة بخصوصية العلاقات الدينية بين الطرفين فى بعديها التاريخى والمعاصر. إذ إن العلاقات الدينية بينهما تبدو أحيانًا مفاجئة وغير متوقعة متشابكة ومتداخلة بصورة كلية أوجزئية مع كافة الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، عوضًا عن المجالات والميادين الثقافية فى إطار التفاعل أو التصادم بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

. . . وبصرف النظر عن التحولات الإيجابية الملحوظة فيما يخص الكنيسة الكاثوليكية تجاه العالم الإسلامى، فإن الحوار الذى يجرى حاليًا إنما يتم بشكل أساسى على مستوى «النخبة» وليس على نطاق جماهيرى واسع، ويظل الحاجز النفسى بمثابة العائق الرئيس الذى يقسم الحضارتين والثقافتين، **حيث ورث الطرفان تاريخًا طويلاً من سوء التفاهم والتنافس الدينى والتحدى المتبادل الذى وصل فى العديد من مراحل التاريخ إلى الحوار بالسلاح.** ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد أن الكنيسة الكاثوليكية لعبت دورًا فعَّالاً فى ذلك الحوار الدامى ـ كما يعترف بعض ممثليها ـ فقد عَرَّضَت الكنيسة نفسها لكثير من الشبهات فى ظل ممارسة بعض مرسليها أعمالهم التبشيرية فى القرنين الأخيرين، لهذا فإنه ليس من المستغرب أن تنظر الشعوب الإسلامية إلى الدعوة الجديدة للحوار من جانب الكنيسة بعين الشك والحذر، على الرغم من ترحيب النخب المثقفة فى البلدان الإسلامية بالدعوة المطروحة. ولهذا، فإن اللاهوتيين وعلماء الإسلاميات الذين يبحثون فى مسائل الاتصال والتواصل الدينى لا يحصرون بحوثهم ودراساتهم فى الجانب النظرى لمشكلة العلاقات مع الإسلام، ولكنهم يركزون على البحث فى قضايا «الحوار الحى بين العقائد والأديان» والبحث فى الأشكال والصيغ الملموسة لحوار المؤمنين من ديانات مختلفة. . فالحوار لا يجرى بين النظم الفلسفية أو الدينية، وإنما بين الناس الذين يملكون خبرات إنسانية ودينية محددة.

الشروط اللازمة لإنجاح الحوار

. . . حتى يمكن للحوار بين العالم الإسلامى والغرب المسيحى أن يؤتى ثماره ويحقق أهدافه المنتظرة من الفهم المتبادل وقبول الآخر إلى التعاون المشترك والتقارب بين المتحاورين ـ ليس فقط لصالح كلا الطرفين ولكن لصالح الإنسانية كلها ـ نرى أن الأمر يتطلب وجود عدد من العوامل والشروط اللازمة لتهيئة الأجواء أمام المتحاورين بتحقيق الهدف من الحوار.

• **أول هذه الشروط** يتمثل فى «الإيمان بجدوى الحوار»؛ لأن تهميش لغة الحوار أدى إلى نشوب الصراعات التى تطورت إلى حروب وأزمات، فلا بد من إعطاء الأولوية لإزالة «معوقات الحوار» ويأتى فى مقدمتها مسألة ربط الغرب بين الإسلام والإرهاب نتيجة لسوء الفهم المتعمد للإسلام، ومحاولات التشويه المستمرة لرموزه التى تؤدى إلى افتعال أزمات جديدة تضاعف الشعور بعدم صدق النوايا، وفقدان الشعور بالثقة والاطمئنان.

• **ثانى هذه الشروط** تدور حول ضرورة إعادة النظر فى «مفهوم الحوار» لدى الغرب الذى يتضمن إملاء الشروط انطلاقًا من موقف الاستعلاء والتميز على العالم الإسلامى باعتباره الطرف الأضعف حضاريًا، وأهمية انطلاق الحوار من أرضية الفهم المتبادل لأهمية الحوار. وإذا تأملنا إطار فلسفة الحوار فى الثقافة الإسلامية سوف نجدها نتاجًا لمبدأ التسامح الإسلامى فى أوضح معانيه، فلا مجال لتعصب لجنس أو دين، والقبول بالتعددية بوصفها تعبيرًا عن الاختلافات بين البشر وقاعدة للحوار الإنسانى، فتفاعلت مع غيرها من الثقافات وساهمت بشكل متواصل فى الحضارة الإنسانية دون انزواء، فتميزت بالأصالة والتواصل ودون توقف وانقطاع. فى مقابل هذا لا بد وأن يكون هناك فهم مشترك لطبيعة الحوار.

• **ثالث هذه الشروط** يشير إلى أهمية الاعتراف بخصوصية الأطراف المتحاورة قبل بدء الحوار. . . فالمشترك الإنسانى الواحد بين جميع الأطراف لا يمنع وجود التنوع والاختلاف فى الرؤى والتصورات، وليس التناقض الذى يقود إلى تطرف المواقف والادعاءات، فالتساوى يكون فى الكرامة الإنسانية واحترام الآخرين وضرورة الإصغاء إليهم والإيمان بأهمية العمل معهم.

● **رابع هذه الشروط** يتمثل فى أهمية إدراك المتحاورين ضرورة ابتعاد الحوار عن الدوائر الشائكة التى تتعلق بمعتقدات الأديان باعتبارها مصدراً أساسيّا للتوتر والخلاف. وأهمية اقتراب الحوار من القضايا الكلية والمفاهيم المشتركة للقيم والأخلاق والمثل العليا والفضائل التى تدعو إليها كافة الأديان، وتجنب استخدام الدين كأداة للصراع أو وسيلة للتشويه والافتراء.

● **خامس هذه الشروط** ـ بل وأهمها ـ أنه لا بد وأن تسبق آليه الحوار «المعرفة العميقة» و«الفهم الدقيق» من جانب كل طرف للآخر، وإلا فإن الحوار بدون معرفة مسبقة أو فهم متبادل سيفقد أهم شروطه لافتقاده لوجود «أرضية مشتركة» ينطلق منها المتحاورون إلى تبادل الأفكار، وإدراك كل طرف لتصورات الآخر.

. . . فالحوار كما يتصوره المستشرق الروسى «أليكس جورافسكى»[١٢٥]: **«يجب أن يتم بين اثنين من البنائين يشتغلان فى تشييد عمارة واحدة، بحيث يشد كلّ منهما أزر الآخر»**. . بهذا يكون الحوار أكثر واقعية ومباشرة، وليس حواراً يجرى بين لاهوتى مسيحى وعالم مسلم يقومان بتقديم مناظرة علمية أو مساجلة بينهما. كما أن الحوار الذى أرادت له الكنيسة الكاثوليكية أن يكون أسلوبًا جديداً للتبشير لم يعد كافيًا على الإطلاق، بينما تظل إشكالية العلاقة المتبادلة بين «الدينى» و «الدنيوى» أو بين «الزمنى» و«الروحى» من أكثر الإشكاليات والمسائل تعقيداً باعتبارها ميدانًا للخلاف فى الحوار المعاصر بين المسيحية والإسلام. حيث إن أغلبية العلماء والفقهاء المسلمين متمسكون بشمولية «الحل الإسلامى» و «عالمية الإسلام». كما أن توجيه الحوار للوصول إلى العموميات والخيارات المتعددة لنظرية التقارب الساعية إلى الحلول الوسط فى مجال القيم الروحية من أجل أهداف دنيوية ومصالح آنية، من شأنها أن تؤدى إلى الخلط والتلفيق بين القيم «الدينية» و «الدنيوية»، ويمكن أن تؤدى فى نهاية المطاف إلى هشاشة الحوار، أو بروز أشكال جديدة من نزعات العداء والهيمنة، ولكن ـ وفى كلا الحالتين ـ عندما يُفْهم الحوار كعملية روحية أو كحل دنيوى فى أوساط المؤمنين، فإنه «أى الحوار» سوف يتحول إلى وهم للتفاهم المتبادل. . فالحوار ليس تماثلاً مع الآخر وليس إلغاءً له. . بقدر ما هو تعبير عن الاختلاف والتنوع.

. . . وترجع أهمية معرفة وفهم الآخر قبل الشروع فى عملية الحوار للتخلص من

ميراث العداء وسوء الفهم تجاه الإسلام إلى أن عداء الغرب الحالى للإسلام ليس مجرد امتداد للعداء التقليدى والصدام الحضارى الذى وصل إلى حد الصراع العسكرى بين الإسلام والغرب منذ الحملات الصليبية وحتى حروب الاستقلال. . وإنما يرجع هذا العداء فى حقيقة الأمر وبصفة خاصة إلى تجربة الغرب التاريخية مع الدين، وإلى عجز الغرب عن فهم طبيعة الإسلام المتميزة التى يحددها الدكتور عزت بيجوفيتش[١٢٦] فى أسباب ثلاثة:

الأول: طبيعة العقل الأوروبى أحَادى النظرة.

الثانى: قصور اللغات الأوروبية عن استيعاب المصطلحات الإسلامية.

الثالث: الوسطية الإسلامية التى عجز الغربيون عن فهمها. . ومن ثم كان الإسلام موضع هجوم من الجانبين المتعارضين فى حضارة الغرب وهما «المسيحية الغربية والمدنية الغربية»؛ فالمسيحيون وفى مقدمتهم «بابا الكاثوليك» يرون فى الإسلام اتجاهًا «يساريًا» لاصقًا بالطبيعة والواقع أكثر مما ينبغى، بينما ـ وعلى العكس من ذلك ـ يرى الماديون فى الإسلام اتجاهًا «يمينيًا» بالنظر إلى ما فيه من غيبيات. . وهكذا يرفض الغربيون الإسلام مرتين لسببين متناقضين، بينما غابت الحقيقة عن كلٍّ من الطرفين، لأن الإسلام فى حقيقته واحد، لكنه شأنه كشان الإنسان له روح وجسد. . وإنما تبدو عناصره متعارضة باختلاف وجهة النظر من جانب من ينظر إليه. ويوضح الدكتور بيجوفيتش «إنه لأسباب تاريخية وللمواجهات السياسية بين المسيحية والإسلام، كثيرًا ما تجاهل الغرب القرابة بين الإسلام والمسيحية. كما أن قبول الإسلام للإنجيل كتابًا مقدسًا، وقبول المسيح رسولاً لله، تم تجاهله أيضًا. ولو استطاع «الغرب» التأمل بصدق فى هذه الحقيقة واستنبط منها النتائج التى تترتب عليها، فإن العلاقة بين هذين الدينين ـ العالميين العظيمين ـ قد تتوجه إلى آفاق جديدة لا نظير لها فى المستقبل».

ويرى المستشرق الألمانى «فريتس شتيبات[١٢٧] Fritz Steppat» فى كتابه «الإسلام شريكًا ـ Islam as Partner» أن الحوار بين الأديان يمكن أن يصبح شيئًا عقيمًا أو أسوأ من ذلك إذا لم يتجنب الأطراف المشاركون فيه بعض المواقف التى يمكن أن تفسده منذ البداية. فالاتجاه لتحويل الطرف الآخر عن دينه أمر يتعارض مع روح الحوار. ويَصْدُق الأمر نفسه على غياب الاحترام لمعتقدات الآخرين بسبب الجهل بأهميتها القصوى

بالنسبة إليه أو عدم الاعتراف بها. وكل محاولة «لكسب النقاط» على حساب الطرف الآخر ـ حتى لو اقتصر ذلك على دائرة النقاش ـ ستؤدى حتمًا إلى إفساد جو الحوار. فالصعوبة الأساسية التى تواجه الحوار بين الأديان تكمن على وجه الدقة فى أن الاقتناعات والاعتقادات الدينية ليست قابلة للنقاش أو للتفاوض على الإطلاق. «.. من هنا تكمن أهمية «الحوار السمح» بين الأديان بالتأكيد على أوجه التشابه والتقارب، والتركيز على العناصر المشتركة بينها، وضرورة إسهام الباحثين العلميين فيه من الغرب والشرق على السواء، ولا بد لأطراف الحوار من أن يجمعوا بين أصدق ولاء ممكن لمعتقداتهم وبين أقصى انفتاح ممكن على الآخرين، حتى تعود ثماره بالخير على الجميع.

وفى إطار أهمية فهم الغرب للإسلام كعامل هام من عوامل إنجاح الحوار، يوضح المفكر الأمريكى المعتدل[١٢٨] «John Esposito» قائلاً: على الرغم من الجذور الدينية المشتركة والمعاملات المستمرة طوال قرون عديدة بين الجانبين، نجد أن علاقة الغرب بالإسلام فى كثير من الأحيان اتسمت بالجهل والنمطية والاحتقار والصراع.. وحجبت الخلافات الناجمة عن العداوات القديمة والصراعات الحديثة إمكانية التقارب والتفاهم المتبادل من خلال الجذور الدينية المشتركة والمفاهيم التقليدية للأديان السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. فقد شكل انتشار الإسلام المبكر ونجاحه الملحوظ تحديات دينية وسياسية وثقافية كانت بمثابة سد منيع أمام تفهم المسيحية للدين الجديد.. ومن جراء تاريخ طويل شهد فى كثير من الأحيان ذم المسيحيين لنبى الإسلام وتشويه صورته.. وأيضًا «تاريخ حديث» تم النظر فيه للإسلام على أنه مساو للراديكالية والإرهاب. لهذا كان من الضرورى العمل على فهم الدين الإسلامى قبل الخوض فى تاريخ العلاقات بين الجانبين. فلابد من معرفة بعض الشىء عن القرآن وعن النبى محمد وعن العصر الإسلامى المبكر من أجل فهم الإسلام.. ولا يجب أن تقتصر مفاهيمنا عن الإسلام والمسلمين على المتظاهرين الذين يعرضون بالهتافات مثل «الموت لأمريكا» أو «الجهاد ضد الكفار» لأنه يجب علينا أن نتذكر أن رجالاً ونساءً من كافة الأجناس والألوان والطبقات الاجتماعية والمستويات التعليمية فى جميع أنحاء العالم على مدى العصور وجدوا فى الإسلام عقيدة أثرت حياتهم التى ظللتها روح الجماعة والتضامن والسلام».

بينما يرى الدكتور «هانز كونج[*] (١٢٩) Hans Kung» فى كتابه عن «الإسلام: الماضى والحاضر والمستقبل»: «أنه لا سلام بين الشعوب بدون سلام بين الأديان.. ولا سلام بين الأديان بدون حوار بين الأديان.. ولا حوار بين الأديان ما لم يكن هناك بحث فى أصول وقواعد الأديان.. لأن المرحلة الراهنة «مرحلة صعبة» لكنها مفصلية فى إعادة صياغة العلاقات الدولية بين الغرب والإسلام. وبين الأديان الإبراهيمية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام.. فالخيارات باتت واضحة: فإما تناحر بين الأديان وصراع بين الحضارات وحرب بين الأمم.. أو حوار بين الثقافات وسلام بين الأديان.. سعيًا إلى سلام بين الشعوب».. ويتساءل «كونج» قائلاً: «ألا يجدر بنا أن نواجه الخطر المدمر المحدق بالإنسانية بأن نهدم جدران التعصب حجرًا بعد حجر.. وأن نبنى جسور الحوار بما فى ذلك جسور مع الإسلام بدلاً من إقامة المزيد من عوائق الكراهية والانتقام والعداء؟». لكنه يستدرك موضحًا: «إننى لا أطالب بأن يتم تجاهل الخلافات.. ولا أن يتم المزج بين الأديان وإسقاط الفوارق بينها.. وكل ما أطالب به هو اقتراب شريف وصادق للتفهم يقوم على وعى ذاتى متبادل بأهمية الموضوعية والإنصاف.. وعلى معرفة عميقة بما يُفَرِّق ويجمع..».. ويُشير «هانز كونج» إلى أن «الجدل العالمى الذى ثار بشأن نشر الرسوم الدنماركية المسيئة للرسول عام ٢٠٠٦م كان دافعًا إضافيًا للفت النظر لأهمية التعريف بالإسلام ورسم خرائطه العقيدية والحضارية».

.. وفى مقاربته للإسلام كدين يتصف بالعالمية، يطرح «هانز كونج» عددًا من التساؤلات الجديرة بالاهتمام مطالبًا الجميع بتقديم إجابات لها.. حتى يمكنهم فهم

(*) الدكتور «هانز كونج ـ Hans Kung» عالم لاهوت سويسرى صاحب المشروع الفكرى «ثلاثية الأديان» الكتاب الأول «اليهودية ـ Judaism ١٩٩١» الكتاب الثانى «المسيحية ـ Christianity» ١٩٩٩، والكتاب الثالث «الإسلام: الماضى ـ والحاضر ـ والمستقبل ـ Islam: Past, Present and Future»، وكتابه عن الإسلام عبارة عن «سفر ضخم يقع فيما يقرب من ٨٠٠ صفحة، صدرت طبعته الأولى بالألمانية فى ٢٠٠٤ - وترجمته الجامعة الأمريكية بالقاهرة إلى الإنجليزية فى عام ٢٠٠٧م، وصَدَّره المؤلف بإهداء إلى أصدقائه المسلمين عبر العالم... وهانز كونج من المفكرين الغربيين القلائل الذين يدعون إلى الحوار بين الحضارات والتفاهم بين الأديان. وأعلن رفضه لأطروحة المنظِّر السياسى الأمريكى «هنتنجتون ـ Huntington» حول الصراع بين الحضارات، بل إنه على العكس من ذلك يدعو إلى أن تسود المعايير الأخلاقية العلاقات الدولية؛ لأن البشرية لم تعد قادرة على تحمل المزيد من ويلات الحروب والصراعات. [المؤلف].

حقيقة الإسلام. . فيقول: «بالنسبة للإسلام ينبغى على المسيحيين وغيرهم أن يسألوا أنفسهم لماذا يعتنق ١,٢ مليار نسمة فى العالم هذا الدين؟ ولماذا يتزايد هذا العدد من الساحل الأطلسى لأفريقيا إلى جزر إندونيسيا. . ومن وسط آسيا إلى موزمبيق؟ الإسلام فى تقدير من يؤمنون به ليس فقط أحدث وأكْمَل الأديان، بل أيضًا أقدم العقائد وأكثرها إنسانية؟. . لماذا كان الإسلام الأقدر بين الأديان على اجتذاب وجمع أتباع من شتى الثقافات؛ فقد جمع بين أناس من كل بقاع الأرض رغم اختلافاتهم الثقافية؟

. . فأين تكمن جاذبية الإسلام وقوته؟ وثقافته وفنونه؟ ما هى نقاط الضعف. . وما هى الإخفاقات؟. . وما هى الأسئلة النقدية التى يجب على المسلمين أن يسألوها لأنفسهم؟. . نعم على المسلمين قبل غيرهم أن يساءلوا أنفسهم عن أسباب التناقض الهائل بين حقيقة دينهم وحقيقة وجودهم؟. . وعليهم تقع مسئولية تقديم الإجابات النابعة من حقيقة الإسلام على تساؤلات العصر وتحدياته.

. . ويشير الدكتور أحمد زويل[١٣٠] فى مقال له بصحيفة «الإندبندنت» البريطانية إلى أهمية الحوار بين الإسلام والغرب. . وضرورة التواصل بين الجانبين من خلال الحوارات لتحقيق الاستقرار العالمى والمنافع المتبادلة. وتساءل الدكتور زويل: هل يمكن لحروب الغرب أن تجد حلاّ لما يسمى بالصراع مع العالم الإسلامى؟ داعيًا الغرب إلى أن يشارك مشاركة حقيقية فى بناء الجسور مع العالم الإسلامى من أجل التقدم والسلام. . مع مراعاة وتفهم الدور العميق لقيم الكرامة والإيمان فى حياة المسلمين. . وعدم إتاحة الفرصة لإقامة حواجز العداء انطلاقًا من مفاهيم «صراع الحضارات» أو «صراع الأديان».

. . ويدعو المفكر الإسلامى الدكتور محمد سليم العوّا[١٣١] إلى إقامة «جسر من الأفكار» للتواصل بين الإسلام والغرب عبر الحوار المتبادل بين العلماء والمفكرين فى كلا الجانبين للتخفيف من أثر الفكر العدوانى المسيطر على تصورات الغرب تجاه الإسلام الذى يرى فيه عدوًا له وخطرًا عليه. فالإسلام ليس دينًا هجوميًا، بل هو دين دفاعى لا يعتدى على أحد، داعيًا علماء ومفكرى الإسلام إلى ضرورة بذل الجهد فى مخاطبة المفكرين الغربيين. . ومطالبًا المسلمين فى كل عصر أن يحاوروا عصرهم

بلسان دينهم . . وأن يُقَدِّموا إلى أهل هذا العصر حقائق الدين، فيظل الإسلام صالحًا لكل زمان وأهله . . ولكل مكان وأهله ـ بفضل حفظ الله له . . ثم بفضل اجتهاد المجتهدين فى تفصيلات تطبيق أصول الدين على مستجدات الفروع وحوادث الزمان».

. . . وإننا على قناعة بأن الحوار بين المسلمين والغربيين(*) من الممكن أن يهيئ المناخ الملائم للتفاهم بينهم ـ إذا ما سبق الحوار الجهود اللازمة لإزالة سوء الفهم والشك المتبادل بين الجانبين. فالحوار «مبدأ أصيل» من مبادئ الدين الإسلامى . . وأصل ثابت من أصول الحضارة العربية الإسلامية، والهدف من ورائه تعزيز الروابط الإنسانية وإشاعة قيم العدل والتسامح . . والنظر إليه باعتباره منطلقًا أساسيًا لإظهار عوامل التقارب والائتلاف بين مختلف الثقافات والحضارات.

* * *

(*) تجدر الإشارة إلى أن «الدعوة للحوار بين الحضارات» جاءت من الجانب الإسلامى عندما أعلن الدكتور محمد خاتمى الرئيس الإيرانى السابق مبادرته للحوار بين الحضارات فى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٩٨م ـ وطالب فى خطابه أن يكون عام ٢٠٠١م عامًا لحوار الحضارات. وقد تبنت الجمعية العامة قراراً بهذا الاقتراح، وكان مما قاله الدكتور خاتمى فى هذا الخطاب: «إننا نأمل من خلال هذا الحوار أنه يمكن دعم العدالة والحرية فى العالم» . . بيد أن فقدان التوازن فى موازين القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية بين أطراف الحوار جعل من هذه المبادرة مجرد أمنيات لا وجود لها على أرض الواقع فى ظل غياب الشروط الموضوعية لحوار بين الأكفاء. [المؤلف].